الباب الخامس

جهود الحسن الصباح فى بلاد الشام ومصر
(فى الشرق الأدنى)

١ ــ حالة بلاد الشام فى عهد الحسن الصباح .

فى الوقت الذى أتيح فيه ظهور الحسن الصباح على مسرح السياسة الإسلامية ، كانت بلاد الشام تموج بالاضطراب ، فقد ظهر السلاجقة ، وقبضوا على صولجان الحكم فى الدولة العباسية ، فأتاح لهم هذا فرصة الاصطدام بالفاطميين ، فانتهزوا فرصة قيام ثورة البساسيرى[1] ، ومعاونة الفاطميين للقائمين بها معاونة جدية ، واستغلوا هذا ضد الفاطميين ، فحاولوا فى أخريات عهد المستنصر الاستيلاء على بلاد الشام كلها ، وهددوا مصر بالهجوم عليها ، غير أنهم وإن استقروا فى بلاد الشام ، وانتزعوها من الفاطميين ، فقد عجزوا عن أن يحققوا أملهم فى مصر نفسها . والحق أن بلاد الشام كانت مسرحا للصراع العنيف بين الفاطميين والسلاجقة ، أو بالأحرى ، بين أنصار السنة وأنصار التشيع . حدث ذلك كله فى الوقت الذى ظهر فيه الحسن الصباح .

ومهما يكن من شىء ، فقد كانت زعامة بلاد الشام ملقاة فى يد تتش بن ألب أرسلان ، الذى حاول الاستقلال بتلك البلاد ، وظهر خطره على وحدة العالم الإسلامى السنى ، بعد موت أخيه السلطان ملكشاه ،

(١) ثار أبو الحارث البساسيرى على العباسيين والسلاجقة فى سنة ٤٥٠ هـ ، وخطب للمستنصر الفاطمى على منابر العراق عاما كاملا (٤٥٠ ــ ٤٥١ هـ) .

فاندفع يعمل مستقلا ، وانضم إلى السلطانة « خاتون » زوجة أخيه ملكشاه ، ضد ابن زوجها بركياروق ، كى تصفو له بلاد الشام جميعها . غير أن وحدة هذه البلاد قد تعرضت بعد موته للتفكك ، فاستبد ابنه الملك رضوان بإقليم حلب ، وابنه دقاق بإقليم دمشق ، وفتك رضوان بأخويه بعد ذلك . ولم يلبث أن استبد الأمراء ـ الأتابكة ـ بالأمر ، دون البيت السلجوقى .

ومعنى هذا أن بلاد الشام كانت نهبا مشاعا بين الفاطميين والسلاجقة من جهة ، ثم بين السلاجقة أنفسهم من جهة أخرى ؛ فإن هؤلاء لم يستطيعوا الاحتفاظ بوحدة تلك البلاد ، وكذلك زاد الأتابكة الحالة انقساما . ومعنى ذلك أيضا أن السلاجقة أضعفوا الوحدة التى كانت قائمة بين الشام ومصر ، الأمر الذى أدى إلى ضعف بلاد الشرق الأدنى ؛ فوقعت طعمة فى أفواه الصليبيين .

نعم ! كان لتلك الحروب العنيفة التى استعرت بين الفاطميين والسلاجقة أولا ، ثم بين أفراد البيت السلجوقى نفسه ثانيا ، ثم بين السلاجقة والأتابكة ، وبين الأتابكة بعضهم وبعض ثالثا ، كان لهذا كله أثره الكبير فى نجاح الصليبيين فى تلك البلاد ، فقد استطاع هؤلاء أن يعبثوا ببلاد الشام ، ويمتلكوا خير بقاعها ، ويقيموا فيها إمارات لاتينية لا تمت فى نظمها ولا فى حياتها الاجتماعية إلى الشرق بصلة ، فجاء وصول الصليبيين إلى الشرق ضغثا على إبالة ، الأمر الذى زاد فى تفكك وحدة البلاد الشآمية . لكل هذه العوامل كانت بلاد الشام مرعى خصيبا ترعرعت فيه « الدعوة النزارية » .

ولا ننس صلاحية بلاد الشام لنشر مبادىء المتشيعين بها ، ولا غرو ، فقد كان للفاطميين الإسماعيلية بها عظيم الأثر ، منذ كانت سلمية ـ بالقرب من حمص ـ مركز القوة الطاردة للمذهب الإسماعيلى ، فى القرن الثالث خاصة ، واستمر الفاطميون يغذون بلاد الشام بدعاتهم طيلة العصر المغربى (٢٩٦ هـ — ٣٥٨ هـ) ، والعصر المصرى ، منذ عهد المعز حتى عهد المستعلى (٣٥٨ هـ — ٤٩٤ هـ) ، أضف إلى ذلك صلاحية بلاد الشام لترويج المذاهب الغالية ، كالمذهب الدرزى، ومذاهب النصيرية . كل هذه الأمور ساعدت على نجاح حركة النزارية فى بلاد الشام ، نجاحا لا يقل خطرا عن نجاحهم فى خراسان وفارس .

أدرك الحسن الصباح إذن تلك الفرصة . وأرسل دعاته إلى بلاد الشام ، فنجحوا نجاحا هائلا ، وكونوا هناك جماعة من النزارية ، لعبت دورا خطيرا فى تاريخ الحروب الصليبية . وقد اشتهر ذلك الفرع النزارى فى التاريخ باسم « الحشيشية » ، والواقع أنهم نوع من النزارية ، أتباع الحسن الصباح .

وبهذا نرى أن القلقشندى لم يكن مصيبا فى اعتبار هؤلاء النزارية من المستعلية ـ أنصار الدعوة القديمة ـ وقد أخطأ كذلك بعض العلماء المحدثين ، حين نقلوا ما ذكره القلقشندى وغيره ، نقلا دون تمحيص ؛ فنرى القلقشندى يقول عن الإسماعيلية « ولما افترقوا إلى مستعلوية ونزارية ... أخذ من منهم ببلاد المشرق بمذهب النزارية ، عملا بدعوة ابن الصباح . . . وأخذ من منهم بالشام بقلاع الإسماعيلية ، بمذهب

المستعلوية ، وصاروا شيعة لمن بعد المستعلى من خلفاء الفاطميين بمصر »[١] .

ونقل الأستاذ محمد كرد على ذلك النص بعينه فى خططه[٢] ، والحق أن العلماء لم يصيبوا فى اعتقادهم أن أصحاب الدعوة الهادية « هم شيعة الخلفاء الذين كانوا بمصر ، وتسموا بالفاطميين . . . وأن كل من ملك مصر كان مظهرا لدينهم »[٣] ، لأن هؤلاء ثاروا على الفاطميين ، ولم يعترفوا بزعامتهم ، منذ عهد المستعلى بن المستنصر ، وينتمى هؤلاء للدعوة النزارية الجديدة ، على حين ينتمى أنصار الفاطميين للدعوة القديمة - المستعلية - ولم نعرف أن « لصاحب مصر يتشيع هؤلاء الفداوية »[٤]

٢ — محاولة النزارية الاستقرار بحلب

لجأ الحسن الصباح فى بلاد الشام إلى سياسة التقرب من الأمراء السنيين ، على عكس سياسته التى كان ينهجها فى بلاد المشرق ، مع سلاطين السلاجقة ، فكان دائم العراك معهم . أما فى بلاد الشام فقد حتم على دعاته الاتصال بأمراء تلك البلاد ، وتقديم خدماتهم لهم ، حتى يستطيعوا التأثير فى نفوسهم ، والحصول على كل ما تصبو نفوسهم إليه من الاستقرار الدائم هناك .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ص ٥٤٥ .

(٢) محمد كرد على : خطط الشام (دمشق سنة ١٩٢٨) ، ج ٦ ص ٢٦٢ .

(٣) ابن الشحنة : الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ، ص ٢٦٥ .

(٤) المصدر نفسه .

ونحن نعلم أن الحسن قد قسم مناطق نفوذه إلى أقاليم رئيسية ، أطلق على كل منها اسم «جزيرة» ، وخصص لكل من هذه الجزر داعيا من كبار دعاته الذين كان يثق فيهم ، والذين عرفوا بذكائهم ولباقتهم. وقد وقع اختيار الحسن الصباح لرياسة « جزيرة » الشام على داع جرىء ، عرف باسم «الطبيب المنجّم» ، فأرسله إلى هذه البلاد فى أواخر القرن الخامس الهجرى.

وكانت وجهة هؤلاء النزارية الأوائل مدينة حلب ، وقد استطاع هذا الداعى أن يجذب إليه الملك رضوان بن تتش بن ألب أرسلان ، الذى آلت إليه ولاية حلب ، بعد موت أبيه تاج الدولة تتش . فأصبح هذا الملك طوع بنانه ، وكان هذا وحده من أهم عوامل نجاح النزارية فى ذلك الدور ، حتى لقد رمى بعض هذا الأمير باعتناق المذهب النزارى.

ولايخفى علينا أن رضوان بن تتش إنما استغل خناجر الفداوية ، مقابل منحهم بعض امتيازات ، لم يوافق عليها السنيون بالطبع ، فكان يداريهم ويغمض عينيه عن مثالبهم ، ويقيم لهم الملاجىء التى يلجأون إليها ، وليس أدل على ذلك مما ذكره المؤرخ كمال الدين [1] من علاقة داعى الحسن الصباح ـ الطبيب المنجم ـ بالملك رضوان فى تلك العبارة : «واستمال الحكيم رضوانا إلى الباطنية جدا ، وظهر مذهبهم فى حلب ، وشايعهم رضوان ، وحفظ جانبهم ، وصار لهم بحلب الجاه العظيم . والقـــدرة الزائدة ، وصارت لهم « دار دعوة » بحلب فى أيامه ، وكانبه الملوك فى أمرهم ، فلم

---

(١) كمال الدين : تاريخ حلب (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية الشرقيين) ، ج ٣ ص ٥٨٠ . ومن هذا نرى أن دعاة النزارية كانوا يتخذون الطب وعلم التنجيم وسيلة للتأثير فى النفوس ، حتى كان رئيسهم بالشام طبيبا منجما ، كما رأيت .

يلتفت ولم يرجع عنهم». من هذا نرى أن الدعوة النزارية وجدت لها من حكام حلب أكبر عون ، فكان هذا دليلا على نجاحها هناك فى المستقبل .

ولقد قام هـذا الداعى النزارى بدور هام فى تاريخ شمالى سورية ، فى أواخر القرن الخامس ، وساعد فى الوقت نفسه فى تفكك العالم الإسلامى وإضعافه أمام الصليبيين ، فقد تآمر «الطبيب المنجم» مع الملك رضوان فى سنة ٤٩٥ هـ ، على قتل جناح الدوله ، صاحب حمص ، وزوج أم رضوان ، بعد أن اتضح للنزارية أنه يتآمر عليهم ، وثبت لهم أنه يسعى بحليفهم رضوان ، وينعى عليه اتصاله بالنزارية ، وفى سبيل ذلك هاجمه وتبرأ منه ، واتصل بأخيه دُقاق بن تتش ، صاحب دمشق ، غير مرة ، وما زال يسعى برضوان . ومن ثم عول النزارية على التخلص منه ، دفاعا عن أنفسهم أولا ، وعن حليفهم رضوان ثانيا .

يوضح كمال الدين ذلك بقوله[١] : وسار جناح الدولة إلى سرمين[٢] ، فكبس عسكر الملك رضوان ، وانهزم رضوان وأكثر عسكره ... وطلب الحكيم المنجم ، فلم يظفر به» . وكان هذا الداعى قد أفسد بين رضوان وبينه ، وفتك النزارية به ، فى سنة ٤٩٥ هـ ، بعد أن هاجموه فى زى متصوفين ، وقتلوه بمسجد مدينة «حمص»[٣] .

والذى أفاد من هذا هم الصليبيون وحدهم ، فقد كان جناح الدولة عنيفا فى صراعه معهم ، وكان يعد العدة لطردهم عن بعض الحصون فى إقليم طرابلس . يقول ابن الوردى : «وسار صنجيل (سان چيل)

---

(١) تاريخ حلب (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية الشرقيين) : ج ٣ ص ٥٩٠ .

(٢) سرمين : من أعمال حلب ، يعتنق معظم أهلها المذهب الإسماعيلى .

(٣) ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ورقة ٤٢٣ .

الفرنجى ، وحصر حصن ابن حماد بطرابلس ، ثم صولح على مال حملوه إليه . ثم فتح صنجيل «انطرسوس» ، وقتل المسلمين بها ، ثم حصر حصن الأكراد ، فأعد جناح الدولة ، صاحب حمص ، العسكر ليسير إليه ، فوثب باطنى على جناح الدولة بالجامع ، فقتله ، وبلغ ذلك صنجيل ، فنازل حمص ، وملك أعمالها » .

ويقول كمال الدين[١] : « ووصل صنجيل الفرنجى ونزل على حمص بعد قتل جناح الدولة بثلاثة أيام ، فسيرت زوجته خاتون أم الملك رضوان تستدعيه ، أى تستدعى رضوانا لتسلم إليه حمص ، ويدفع الفرنج ، فكره المقدمون ذلك ، وخافوا منه لسوء رأيه » . والحق أن قتل جناح الدولة كان ضربة قاضية وجهت إلى وحدة المسلمين فى الشام ، ولولا مهارة دقاق بن تتش صاحب دمشق والأتابك طغتكين ، لسقطت حمص فى يد الصليبيين[٢] . ولم يعمر الباطنى بعد مقتل جناح الدولة ، وقتل بعد بضعه عشر يوما من مقتله .

وبقتل الداعى الطبيب المنجم ، تلقف زعامة الإسماعيلية فى الشام داع آخر ، أكثر جرأة وإقداما منه ، يعرف بأبى طاهر الصـــائغ أو العجمى الصائغ ، ولكن زعامة تلك الطائفة كانت موزعة بين أبى طاهر هذا وبين داع آخر يدعى أبا الفتح السرمينى ، وكان مركزه فى الشام شبيها بمركز كبير دعاة النزارية فى «جزر» الدعوة الرئيسية . وقد لعب كل من هذين الزعيمين دورا خطيرا فى تنشئة تلك الجماعة فى إقليم حلب ، ولعب

---

(١) تاريخ حلب ، من مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية الشرقيين ج ٣ ص ٥٩٠ .

(٢) ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ورقة ٤٢٣

النزارية فى عهدهما دورا كبيرا فى احتلال قلعة «أفامية»[١] تحت ستار اسم الملك رضوان، صاحب حلب، الأمر الذى يدل على امتزاج تاريخ نزارية الشام، بتاريخ السلاجقة هناك، وبتاريخ الصليبيين أيضا.

وذلك أن مدينة «سرمين»، جنوب حلب بمرحلة واحدة. وقعت في أيدى الصليبيين وكان أكثر أهلها على دين النزارية[٢]، ففر قاضيها أبو الفتح السرمينى، وكان من زعماء النزارية، وقصد إلى قلعة «أفامية» فى سنة ٤٩٩ هـ (١١٠٦ م)، طالبا النجدة من صاحبها، خلف بن ملاعب الكلابى[٣]، الذى كان قد استبد بها دون الفاطميين، فوقع من قلبه موقعا جعله يثق به، ويعتمد عليه. ولما كان دأب النزارية الاستيلاء على القلاع، فقد اتصل السرمينى النزارى بأبى طاهر الصايغ، زعيم النزارية فى حلب، وتآمر معه على الفتك بخلف بن ملاعب. وقد تسربت أخبار هذه المؤامرة إلى أبناء خلف، فلما نصحا والدهما لم ينتصح، وتمكن أبو الفتح بدهائه ومواهبه من التظاهر بالإخلاص لمضيفه، وحينئذ ضاعف أبو الفتح السرمينى هذا جهوده، واشترك رضوان مع أبى طاهر الصايغ

---

(١) مدينة كبيرة، وكورة من كور حمص، ويقال لها فامية.

(٢) الذهبى: تاريخ الإسلام، جـ ٣ ورقة ٥٦١.

(٣) كان خلف يحكم حمص فى عهد تتش، الذى حنق عليه، بسبب سوء تصرفه، ففر إلى مصر، وبقى بها، إلى أن طلب صاحب «أفامية» السلجوقى، من الفاطميين، وكان على عقيدتهم، نائبا من قبلهم يسلم له القلعة، فألح ابن ملاعب على الفاطميين، حتى صرحوا له بحكم هذه القلعة، فلما استقرت له الأمور بها خلع طاعة الفاطميين.

فى مؤامرته (١).

وهناك أمور جديرة بالنظر فى أمر أفامية ؛ منها أن الملك رضوان ، صاحب حلب، قد اندمج مع النزارية فى مؤامراتهم ، فخدعوه وادعوا أنهم يفتحون « أفامية » له لا لسواه . وبهذا نرى أن رضوان كان يعتمد فى توسيع ملكه على خناجر الفداوية ، ولكنه لم يستطع الإبقاء على ذلك الملك الجديد، بل عبثت به مطامع النزارية ومطامع الصليبيين، على ما سنرى.

وما كاد الداعى أبو طاهر الصايغ زعيم النزارية بحلب ، يعلم بوقوع «أفامية» فى قبضة زميله، أبى الفتح السرمينى ، حتى أسرع بالذهاب إليه ، وهو يؤمن إيمانا جازما أن «أفامية» ستصبح فى قبضته ، ولكنه لم يستطع الاتفاق مع أبى الفتح السرمينى ، لأن كلا منهما كان يريد أن تكون له الزعامة فيها ، ومهما يكن من أمر ، فإنه لما « سمع الصايغ خبر « أفامية » ، سار إليها وهو لا يشك أنها له ، فقال له القاضى : إن وافقتنى وأقمت

(١) مضمون تلك المؤامرة أن يرسل الملك رضوان بن تتش ثلثمائة رجل من أهل سرمين ، ومعهم خيول مما أسرها من الفرنجة ، ويذهب هؤلاء الرجال إلى خلف ، بدعوى أنهم فروا من رضوان ، وأنهم حاربوا الفرنجة وهم فى طريقهم إلى أفامية ، وأخذوا منهم ما معهم من الخيول . فاذا ما أذن لهم خلف بن ملاعب بالاقامة معه ، أعملوا الحيلة مع أبى الفتح السرمينى ، وقتلوا خلفا ، وقد كان لهم ما أرادوا ، إذ اتفق أبو الفتح السرمينى مع النزارية فى داخل القلعة ، ودلى هؤلاء له الحبال ، فصعد القلعة ومعه نفر من أنصاره من أهل سرمين ، فقتلوا خلف بن ملاعب ، وأصبحت القلعة فى يد النزارية .

ويرى ابن الجوزى (ج ٨ ورقة ١١) أن أبا الفتح السرمينى كان داعيا للنزارية فى أفامية ، واتفق مع أهلها على الغدر بخلف بن ملاعب ، فنقبوا السور ، وهجموا عليه ، فقتلوه .

معى ، فعلى الرحب ، ونحن نحلك[١] ، وإلا فارجع من حيث جئت ، فأيس منه »[٢] .

نتبين من هذا ميل أبى الفتح المرمينى إلى الزعامة ، ولا غرو فقد كان يمت إلى مؤسس المذهب النزارى ـ الصباح ـ بالقرابة ، كما لا يبعد أن يكون الحسن الصباح قد عينه رئيسا للدعوة فى تلك النواحى. ونعتقد أن ما فعله الداعى أبو الفتح مع زميله أبى طاهر خدعة ، يرمى من ورائها إلى شل يد الملك رضوان عن التدخل فى شئون « أفاميَّة » ، إذ لا يعقل أن يقف النزارى المخلص من أخيه النزارى هذا الموقف الجاف ، لأنهم جميعا ما أتوا إلى بلاد الشام إلا ليعاون بعضهم بعضا .

ونفهم من هذه الحادثة أيضا كيف انتقض حاكم « أفاميَّة » السلجوقى على رئيسه رضوان ، لأنه كان على المذهب الإسماعيلى المستعلوى ، « وبعث بطاعته إلى صاحب مصر »[٣] . وإذن لا يبعد أن يكون انتقاض والى « أفاميَّة » السلجوقى على السلاجقة ، إنما هو ثورة الإسماعيلية المستعلية على السنيين . يؤيد ذلك ما ذهب ابن ميسر إليه حيث يقول : « إن أهل « أفاميَّة » قدموا إلى مصر ، وكانت مذاهبهم إسماعيلية ، وسألوا واليا يكون عليهم ، فوقع الاختيار على ابن ملاعب »[٤] .

كما أن انتقاض خلف بن ملاعب على الفاطميين المستعلية ، واتفاقه

---

(١) نحلك : نرحب بك .

(٢) العينى : عقد الجمان ، جـ ٢ ورقة ٥٩٢ .

(٣) ابن خلدون : العبر ، جـ ٥ ص ١٨٩ .

(٤) ابن ميسر : تاريخ مصر ، جـ ٢ ص ٣٧ .

فى بادى أمره مع أبى الفتح السرمينى النزارى ، مع إغراق هذا فى مبادىء النزارية ، دليل على أن ابن ملاعب لا بد أن يكون قد تعشق المذهب النزارى . وبذلك يكون انتقاضه على الفاطميين ، لو صح ما ذهبنا إليه ، انتقاض النزارية على المستعلية ، خصوصا وأنه كان على صلة طيبة بمقدم الدعوة فى الشام ، أبى الفتح السرمينى . ولا بد كذلك أن يكون قد حدث نزاع بين المستعلية والنزارية فى قلعة «أفاميّة» ، وتغلب الأخيرون ، وانضوى الباقون تحت لوائهم .

وأما علاقة الصليبيين بذلك الحادث ، فتراها واضحة فيما قام به تنكريد ، Toncrede صاحب أنطاكية ، وأحد كبار الصليبيين ، ويسميه العرب «طنكرى» ، فإنه أتى إلى «أفاميّة» عقب احتلال النزارية لها ، وحاول الاستيلاء عليها ، فرده الداعى أبو الفتح السرمينى عنها ، وتعهد له بدفع مقدار كبير من المال[١] . غير أن أحد أبناء خلف بن ملاعب ، فر إلى الصليبيين ، وأغراهم بالنزارية ، وشرح لهم ضعف مركزهم ، فأعاد تنكريد الكرة ، وحاصر قلعة «أفاميّة» ، حتى سلمت له فى سنة ٥٠٠ هـ[٢] (١١٠٦م) ، وقتل أبا الفتح السرمينى ، وأسر أبا طاهر الصايغ ، وجماعة من أشياعه ، ولم يتركه الصليبيون إلا بعد ان افتدى نفسه بمال كثير[٣] .

وهكذا مهد النزارية للصليبيين فى احتلال بعض بلاد المسلمين ، مما يدل على التفكك ، الذى عرا العالم الإسلامى فى بلاد الشام وقتئذ ... فالسلاجقة منقسمون على أنفسهم ، والنزارية يحاربون السنيين ، كما يستعين السنيون

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٥٠ .

(٢) ابن الجوزى : مرآة الزمان (مخطوط) ، جـ ٨ ورقة ١١ .

(٣) الذهبى : تاريخ الإسلام (مخطوط) ، جـ ٣ ورقة ٥١٧ .

فى الكثير من الأحيان بالصليبيين على النزارية، فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار. وعلى أية حال: «إن مصبح بن (خلف بن) ملاعب، الذى أفلت من نوبة «أفاميَّة»، التجأ إلى طنكرى، صاحب أنطاكية، وحرضه على العودة إلى «أفاميَّة»، وأطمعه فى أخذها، لقلة القوت بها. فنهض إليها. ونزل عليها وضايقها، إلى أن تسلمها بالأمان، فى الثالث عشر من المحرم سنة خمسمائة، فلما حصل أبو الفتح السرمينى الباطنى فى يده، قتله بالعقوبة، وحمل أبا طاهر الصائغ معه وأصحابه أسرى ... ولم تزل الأسرى فى يده، إلى أن فدوا نفوسهم بمال بذلوه لهم، فأطلقهم، ووصلوا إلى حلب»[١].

وتعتبر الطريقة التى اتبعها النزارية فى الاستيلاء على حصن أفامية إحدى طرق نزارية المشرق فى استلاب القلاع من أهلها. ولا يبعد أن يكون الحسن الصباح وجماعته بالمشرق هم الذين أوحوا بذلك إلى أبى الفتح السرمينى ورفاقه النزارية. يدل على هذا ما سنراه من اتصال الحسن الصباح بنزارية الشام ومراسلته معهم، حين حاولوا اغتصاب حصن شيزر[٢] بعد ذلك بقليل.

وكان الملك رضوان صاحب حلب، لا يزال على حبه النزارية، فاستقبل «أبا الطاهر الصائغ» النزارى، حين عودته من الأسر، خير استقبال[٣]، وتظاهر للسلطان محمد السلجوقى بن ملكشاه بأنه يبغض النزارية، وذلك حين بعث هذا السلطان إليه يحرضه بالنزارية. والحق أنه كان لا يزال على حبه

---

(١) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٥٠.

(٢) Von Hammer ; Hist. de l'Ordre des Assassins, p. 166

(٣) Defremery : Nouvelles Recherches (J. A. 1854) p.386

لهم ، وأنهم كانوا لا يزالون يخلصون له أيضا. وبسياسته المزدوجة هذه ، استطاع أن يضع السيف فى غمدين .

يقول ابن الفرات : « ورد كتاب السلطان محمد إلى الملك رضوان صاحب حلب بفتح حصون الباطنية ، فأمر بضرب البشائر ، وتزيين البلد ، واتصل بالملك رضوان بعد ذلك أنه ذكر فى مجلس السلطان محمد ، فلعنه الأمراء ، وقالوا : إنه يشايع الباطنية ويحرس جانبهم ، ويواصلهم بالإنعام والإحسان ، وحين وصل هذا الكلام إلى الملك رضوان ، أمر أبا الغنائم ، أخا أبى الفتح السرميني ، بالخروج من حلب فيمن معه ؛ فانسل من حلب بعد أن تخطف الناس جانبهم ، وقتل منهم جماعة »(١).

والدليل على أن رضوان كان لا يزال على حب النزارية والاستعانة بهم ، وأنه لم يفعل ما فعل إلا ليبعد الشبهة عن نفسه ، أو ليرضى السلطان محمد ، أنه فى سنة ٥٠٥ هـ (١١١١ م) ، حين خرجت جيوش السلطان محمد لحرب الصليبيين فى بلاد ما بين النهرين ، وحاصروا مدينة الرها ، وعلى الرغم من أن رضوان أفاد كثيرا مما نهبه المسلمون من بلاد الصليبيين ، بفضل جيوش السلطان محمد هذه ، فإنه اغلق أبواب حلب فى وجوه قواد السلطان ، ولم يمكنهم من أخذ الميرة منها ، فحاصرها هؤلاء طويلا واحتمى هو بقلعتها ، وعمل على حفظ النظام فى حاضرة ملكه ، مستعينا فى ذلك بالنزارية ، الأمر الذى يدل على اعتماد رضوان على سواعد هذه الطائفة وخناجرهم ، ويدل فى الوقت نفسه على أن حلب لم تخل منهم ، ولكن ضررهم كان بليغا ، « فقد كانت النكاية بهم أشد من نكاية الذين

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك (مخطوط) ، ج ١ ورقة ٢٩ .

فى ظاهر البلد »[١] وما أحسن ما قاله طغتكين أتابك دمشق ، فى رضوان « وما أظنه إلا رقيق الدين . وإنى خائف أن يملك الباطنية هذا الثغر بسببه وعلى يديه »[٢] .

ويثبت اعتماد رضوان فى ذلك الدور على خناجر الفداوية ، أنه تآمر معهم على الفتك بطغتكين ، أتابك دمشق ، فشاور فى أمره أخا لأبى الفتح السرمينى الباطنى . وكان يسكن بحلب ، وكان عند جماعة من الباطنية ، فخرج الباطنى من حلب يروم غرة [طلعة] الأمير طغتكين ، فلم يمكنه ذلك لشدة احتراسه من رضوان ومكايده »[٣] . وهكذا لم يطرد رضوان الباطنية من حلب عن إخلاص وصدق عزيمة .

وقد شعر الملك رضوان فى أخريات حياته ، أنه أخطأ خطأ فاحشا ، باعتماده على خناجر الفداوية . فقد أثار حنق السنيين جميعا عليه ، وكاد أن يقع هو نفسه تحت طائلة خناجر وهذه الطائفة ، إذ بدءوا يتآمرون عليه ، ويعملون على احتلال قلعة حلب ذاتها . ومن تفصيل تلك المؤامرة التى دبرها النزارية ضده[٤] . نرى أن خمسمائة رجل من النزارية أتوا من بلاد المشرق لإتمام احتلالها . ولا يبعد أن يكون الحسن الصباح هو الذى وضع مشروع احتلال قلعة حلب ، على الرغم من أن رضوانا كان يتحيز إلى جانب الباطنية دائما . ونرى أيضا أن أصحاب أبى طاهر الصايغ

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك . ج ١ ورقة ٥٤ .

(٢) المصدر والصفحة .

(٣) المصدر نفسه : ج ١ ورقة ٥٥ أ

(٤) أنظر الملحق رقم (٢) .

ونائبه ـ أبا الغنائم ـ كانوا على علم بها . فاشتراك هؤلاء النزارية فيها جميعا دليل على خطورة ما أقدموا عليه . ولا يبعد مطلقا أن يكون غرض النزارية قلب الفرع الملكى السلجوقى فى بلاد الشام ، لأن رضوانا كان أهم من يمثل الفرع الملكى السلجوقى هناك ، ثم تكوين دولة نزارية ، فى الشام عاصمتها حلب . كما أن تلك المؤامرة كانت من العوامل التى نفرت الملك رضوان من الباطنية . ومن المحتمل جدا أن يكون لهذه الحادثة أثر فى جعل الملك تاج الملوك ألب أرسلان بن رضوان ينتقم من الباطنية ـ على ما سنرى .

ونستنتج من هذا كله أن النزرية في الشام كانوا فى فجر القرن السادس الهجرى قوة لا يستهان بها . ولو قدر لهم الاستيلاء على قلعة حلب لكان لهم فى هذه المنطقة الشمالية شأن آخر . ومن الغريب أنهم فى أخريات حياة الملك رضوان بدءوا يتصلون بأتابك دمشق ، فدل هذا على شعورهم بأنهم أخفقوا فى الشمال وحاولوا الاتجاه نحو الجنوب . ويظهر أن طغتكين ، أتابك دمشق ، أراد أن يقلد الملك رضوانا صاحب حلب فى الاعتماد على خناجر الفداوية ، فاعتضد بهم ، واتخذهم أسلحة يوجهها ضد أعدائه ، على الرغم من تشنيعه عليهم وتبرئه منهم .

ولندرس حادثة مقتل الأمير مودود ، أتابك الموصل فى سنة ٥٠٧ لنرى منها كيف بدأ نفوذ النزارية يتوغل فى الجنوب ، وكيف أضحوا خطرا على جميع الأمراء السنيين المعارضين ، وكيف كانوا بعملهم هذا يتيحون الفرص النادرة للصليبيين كى يهجموا على المسلمين . ويتشفوا منهم ؛ ففى سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م) قتل الأمير مودود فى دمشق ، وهو يصلى الجمعة مع

طغتكين، أتابك دمشق، قتله الباطنية، فكثرت الإشاعات حول مقتله، ورمى «طغتكين» بالتآمر على منقذه «مودود»، ودافع البعض عن طغتكين؛ وعلى الرغم من اختلاف المؤرخين في معرفة المحرض الحقيقي على قتل مودود، فإنهم يكادون يتفقون على أن القتلة من النزارية.

ومن أشهر العلماء الذين دافعوا عن «طغتكين» المؤرخ الكبير، سبط ابن الجوزي، حيث يقول: «فقلق أتابك لوفاته على هذا الوجه، وحزن حزنا شديدا». ويقول في موضع آخر: «وذكر بعضهم أن أتابك خاف منه، فوضع عليه من قتله، وليس بصحيح؛ فإن طغتكين كان أحب الناس إليه. وحزن عليه حزنا لم يحزنه أحد على أحد، وشق ثوبه عليه، وجلس في عزائه سبعة أيام، وتصدق عنه بمال جزيل»(١)

إلا أن حجة ابن الجوزي ضعيفة، لأن المعروف أن اتفاق رضوان وطغتكين خفف من حدة الأخير على النزارية، ولا يبعد على طغتكين أن يستخدم خناجر «ؤلاء ضد أعدائه. ولما كان مودود(٢) من أكثر

---

(١) ابن الجوزي: مرآة الزمان (مخطوط)، ج ٨ ورقة ٣١.

(٢) مودود: «ابن ألتونتاش»، أحد قواد ملكشاه، الذين حاربوا النزارية المشارقة في صرامة وعنف، أسندت إليه إمارة الموصل سنة ٥٠٣، وقد استنجد طغتكين به، ليقف في وجه مطامع بلدوين، ملك بيت المقدس، لأن هذا الصليبي تابع هجماته على دمشق، فاجتمعت جيوش اسلامية كثيرة، ووالى أمراء المسلمين الضغط على بلدوين وحلفائه، حتى تم لهم النصر في نهاية خريف ٥٠٧هـ، فعاد مودود إلى دمشق، وسرح جيشه، على أمل معاودة الهجوم في ربيع العام القابل (٥٠٨ هـ). وبقي هو وخاصته في دمشق، فوثب عليه نزاري في مسجد هذه المدينة، وقتله، وقطعت رأس النزاري، ليعرف شخصه فما عرف [ابن الجوزي، ج ٨ ورقة ٣١].

الأمراء السنيين طموحا . وأن نجمه أخذ يتألق فى سماء الحروب الصليبية ، وأن السلطان محمد بن ملكشاه ، أخذ يعتمد عليه فى كل ما هو خاص بتلك الحروب ، لذلك كله . حقد عليه طغتكين . وخافه فى الوقت نفسه ، لأنه كان يعد نفسه الزعيم الأول فى بلاد الشام . وود التخلص من منافسه الجديد ـ مودود ـ وقد وجد من نزارية الشام أذنا مصغية . يقول ابن الأثير (١) : « خافه طغتكين . فوضع عليه من يقتله » . ويقول ابن الفرات (٢) : « إن طغتكين عرف من مخايل أحواله ... أنه عازم على أخذ دمشق ، فعاجله على ماعزم عليه ، فرتب هذا الرجل (النزارى) لقتله » .

هكذا انتقم النزارية لأنفسهم من مودود ، لبغضه لهم أولا . ولما فعله أبوه «ألتونتاش» معهم فى المشرق ثانيا . والحق أن تلك المؤامرة ترينا يده توغل النزارية فى دمشق . وترينا أيضا أن فتكات النزارية إنما كانت لغرض الإبقاء على المذهب ، سواء أكان ذلك بالفتك بأعدائه ، أو الاتفاق مع أنصاره ، ولم يكن المسلمون وحدهم هم الذين اتهموا طغتكين بقتل مودود ، بل إن الفرنجة أنفسهم ـ على ما يقول ابن الفرات ـ أرسلوا إلى طغتكين يقولون : « إن أمة قتلت عميدها فى بيت معبودها ، فى يوم عيدها ، لحقيق على الله أن يبيدها »(٣).

هذا وقد أفاد الصليبيون من مقتل مودود ، فخف ضغط السنيين عليهم بعد مقتله ، مما يدل على أن النزارية كانوا عونا للصليبيين ، بفتكهم بكبار أعدائهم من السنيين .

---

(١) الكامل ، ج ١٠ ص ١٨٧ .

(٢) الدول والملوك ، ج ١ ورقة ٧٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ورقة ٨٩ .

من هذا كله نرى أن النزارية فى حلب ظلوا قوة لايستهان بها فى عهد الملك رضوان بن تُتُش ، الذى لم يستطع القضاء عليهم ، رغم تآمرهم عليه، كما نرى أنهم بدءوا ينشرون نفوذهم ومبادئهم فى إقليم دمشق جنوبا .

(ب) خذلان النزارية فى الاستقرار بحلب وآثاره :

لم يستطع النزارية الاستقرار الدائم فى مدينة حلب ، فلم يتمكنوا من اتخاذ قلاع يعيشون فيها ، أو الاستيطان فى مدن خاصة بهم ، ولكنهم على الرغم من إخفاقهم فى جميع محاولاتهم ظلوا قوة مرهوبة الجانب ، يخشاهم الأمراء والملوك ، ويهابهم العامة ، فكانوا يقتلون من أرادوا قتله، ويتخذون من دور دعوتهم فى هذه المدينة الكبرى ، قواعد يوجهون منها ضرباتهم المميتة . فأخذوا يقتلون الناس فى الطرقات ، دون أن يجدوا معارضة تذكر . ومما زادهم قوة ، أنهم ثاروا على القوانين المعمول بها فى تلك الأيام، وانضم إليهم كل ثائر على النظام، وكل خارج على القانون .

ولنترك العلامة كمال الدين [1] يصف لنا فى كتابه « تاريخ حلب » قوة النزارية وقتذاك ، فيقول: « وكان أمر الباطنية قد قوى بحلب . فى أيام رضوان ، وبايعهم خلق كثير على مذهبهم . طلبا لجاههم . وصار كل من أراد أن يحمى نفسه من قتل أو ضيم التجأ إليهم » ، « وصار لهم بمدينة حلب « دار دعوة » ، وعظم شأنهم . وصار كل من جنى جناية وانتسب إليهم منعوه وحرسوه ، وكاتبوا الملوك فى أمره ، حتى يخلصوه . فكثر بذلك

---

(١) Recueil des Historiens des Croisades Orientaux, vol. iii, p. 603.

أتباعهم ، واشتهر أمرهم . واشتدت شوكتهم . وصار الرجل منهم يلقى الرجل من غيرهم ، فينزع عنه ثيابه . ولا يقدر على الامتناع منه ، ولا يجد ناصرا. ويلقى أحدهم المرأة والصبي في الطريق فيقبضه ، ويذهب به أنى شاء ، ولا يقدر أحد على استخلاصه . وليس هذا فقط ، بل إنهم رغبوا - كما رأينا - في أخذ قلعة حلب » (١).

هذه هي حال النزارية. وتلك هي قوتهم ، في أواخر عهد الملك رضوان ابن تتش ، وقد تطلعت النفوس إلى ابنه الملك «ألب أرسلان» ، الملقب بتاج الملوك ، وكان شابا لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره ، فراسله عمه السلطان محمد ابن ملكشاه ، وحثه عليه الفتك بالنزارية ، والتبرؤ مما فعله أبوه رضوان. ومما لامراء فيه أن إرسال السلطان محمد ، إلى ألب أرسلان، دليل قاطع على اهتمام السلاجقة الأوائل بقطع دابر النزارية واستئصال شأفتهم ، ودليل أيضا على خطورة مركزهم في بلاد الشام ، وكان مما قاله السلطان محمد لتاج الملوك : « والدك كان يخالفني في الباطنية ، وأنت ولدي ، فأحب أن تقتلهم » (٢) .

ولسنا في حاجة إلى القول بأن جماعة هذا شأنها، مآلها تكتل السنيين عليها والثورة بها . وكان حتما على هذه الجماعة أن تعمل على استمالة أتابكة حلب وأمرائها ، بعد موت الملك رضوان ، والتظاهر أمام السنيين بأنهم لا يبغضون دينهم . ويخيل إلينا أن العلماء السنيين إنما كانوا يكيلون

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ١ ورقة ٧١ .

(٢) Recueil des Historiens des Croisades Orientaux vol. iii., p. 603.

لهم التهم جزافا ، لأن جماعة النزارية كانوا يحاربون السنيين بالمبادىء ، ويعتقدون أن حركتهم حركة إصلاحية شاملة ، فلا يعقل إذن أن يستخدموا الخنجر وحده لنشر دعوتهم والانتصار لمذهبهم ، ولا بد أن صراعهم مع السنيين كان صراعا كلاميا وصراعا دمويا كذلك . شأن كل المذاهب الدينية والسياسية فى جميع العصور والأماكن .

ومهما يكن من شىء فقد ضاق السنيون فى حلب وغيرها ذرعا بالنزارية ، ووددوا لو تخلصوا منهم . وقد سنحت الفرصة للسنيين فى حلب بموت الملك رضوان ، حليف النزارية ، واستطاع زعماء هذه المدينة ، الوصول إلى قلب « ألب أرسلان » ، وأوهموه بأن قتال النزارية جهاد فى سبيل الله ، يثاب المرء عليه ، ويبرء من وباء فتاك ، وأعلموه أن فى قتالهم وقتلهم أعظم القرب إلى الله تعالى ، مضافا إلى ما فيه من تخليص الناس من معرتهم ومضرتهم »[1]

وكان من أثر ذلك أن صدرت أوامر الملك ألب أرسلان بالقبض على زعماء النزارية ، وأصدر أمرا آخر حتم فيه على رعيته قتل جميع من يعثرون عليه من الباطنية ، وقد تمكن ابن بديع من القبض على كثير من زعمائهم ، وتمكن البعض الآخر منهم من الفرار ، فمن قبض عليهم أبو طاهر الصائغ ، ثانى رؤسائهم بالشام ، وابنه ، الذى قتل « صبرا على باب العراق ، ورجمته العامة ، وأحرقت شلوه [2] ، وطيف برأسه فى بلاد الشام » ، وكذلك قتل الداعى إسماعيل ، أخو الطبيب المنجم ، داعى النزارية الأوائل فى تلك البلاد .

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، جـ ١ ورقة ٧٢ .

(٢) الشلو : الجثة .

ومن أفلت من زعماء النزارية فى حلب داعيان كبيران، يسمى أحدهما «حسام الدين ابن دملاج»، حيث فر إلى مدينة الرقة . وبقى بها حتى مات، ويدعى الآخر، إبراهيم العجمى الداعى، وكان لهذا الرجل شأن يذكر فى عهد الملك رضوان، فقد كان من نوابه فى حفظ القلعة بحلب، وترجع أهمية إبراهيم هذا فى تاريخ النزارية بالشام، إلى أنه تمكن من الفرار إلى حصن شيزر[1] وعمل على الاستيلاء عليه بمؤامرة، سنرى تفصيلها بعد .

وأما ما نال عامة النزارية فى حلب، فكان أشد هولا مما نال زعماءهم، إذ صودرت أملاكهم، وقتل منهم بظاهر حلب ثلثمائة، كما قبض على مائتين من كبارهم . وقتل بعضهم صبرا . وألقى ببعضهم من أعلى القلاع، وبالبعض الآخر فى السجون . وكثر الاتهام باعتناق المذهب النزارى . وهذا الاتهام كان يعتبر سبة فى نظر السنى المخلص، حتى قتل الكثيرون من الأبرياء، وأخذ النزارية يقتلون بعضهم بعضا، ليتخلصوا من تبعة هذا الاسم، على أن جماعة منهم تمكنوا من الإفلات، ففر بعضهم إلى الفرنجة، وتفرق البعض الآخر هنا وهناك . والخلاصة، أنه لم يبق بحلب منهم [بعد هذه المذبحة] من يعرف »[2] .

وتعتبر مذبحة نزارية حلب من أهم الأحداث فى تاريخ هذه الطائفة فى الشام، فقد كانت معيارا صحيحا للحيوية الكامنة فى جسم هذه الجماعة، وخير محك لما تتمتع به من قوة معنوية . وقد خيل للبعض أن هذه المذبحة فيها نهاية النزارية بالشام، ولكن الحيوية الكامنة فى جسم هذه الجماعة هى التى بعثتها بعثا جديدا، فلم تلن قناتهم أمام عاصفة السنيين

(١) يقع على مسافة نصف يوم من حماة، كما يقع على نهر العاصى .
(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك، ج ١ ورقة ٧١ .

المدمرة هذه . وإنما قابلوها بابتسامة الساخر الصابر ، الذى يسخر من عبث الحياة . ويصبر على الضيم ، ومن ثم كان لزاما على القائمين بشئون تلك الجماعة فى بلاد الشام، أن يوجهوها وجهة جديدة ، فيغيروا الأسلوب الذى سلكوه من قبل ، ويصححوا الأوضاع الخاطئة التى وقعوا فيها ، ويضعوا الخطوط الرئيسية للسياسة الجديدة ، التى يجب على هذه الجماعة أن تسلكها بعد تلك المذبحة .

ومهما يكن من شىء فقد كان لهذه المذبحة آثار بعيدة المدى ، منها أن النزارية فقدوا كثيراً من زعمائهم ، غير أنه كان من حسن حظهم ، حدوث تلك المذبحة المروعة، بعد رواج دعوتهم فى أنحاء الشام ، وبذلك لم يتأثروا بها كثيرا ، ولكن الذى فقدوه حقا ، هو عدم تحقيق أمنيتهم الكبرى فى اتخاذ مدينة حلب قاعدة أساسية لدعوتهم فى بلاد الشام ، إذ أنهم على الرغم من افتضاح أمرهم واكتشاف مؤامرتهم ، التى كانوا يرمون من ورائها إلى احتلال قلعة هذه المدينة قبل هذه المذبحة ، على الرغم من ذلك ، فإن نفوذهم فى حلب ظل قويا ، ولم يفقدوا أملهم فى الاستيلاء على قلعتها ، ولكن تلك المذبحة «لم تبق منهم بحلب من يعرف».

وقد دل هذا على أنهم وقعوا فى خطأ كبير من جراء تركيز قوتهم فى مدينة كبيرة كهذه ، فإن معظم أهلها من السنيين ، وقد خالفوا بعملهم هذا سنة نزارية المشرق ، الذين كان دأبهم الاستيلاء على القلاع ، وتكوين المجتمعات الإسماعيلية الخالصة . وسنرى أنهم أصيبوا فى دمشق بأكثر مما أصيبوا به فى حلب ، بسبب مخالفتهم هذا المنهاج السليم ، وهو امتلاك القلاع الجبلية ، وتكوين المجتمعات الإسماعيلية البحت . وسنرى أن نجاحهم

الحقيقى سوف لا يكون إلا فى القلاع وحدها [١] .

ومن أهم نتائج هذه المذبحة أيضا، محاولة النزارية الاستيلاء على بعض الأماكن ذات الموقع الاستراتيجى الهام ، وتكوين مجتمعات إسماعيلية خالصة بها ، تستطيع مقاومة الأنواء السنية : السياسية والدينية ، وكانت محاولتهم فتح « شيزر » بعد ذلك خير دليل على هذا الاتجاه الجديد، فإن الداعى إبراهيم العجمى، أحد زعماء الإسماعيلية، تمكن من الإفلات من هذه المذبحة، ولجأ إلى جماعة من النزارية كانوا يقطنون فى « شيزر »، وأخذت فلول النزارية يتكاثفون حوله بها، ويفدون عليها. فلما كثر عددهم، تآمروا على امتلاكها فى سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م) . يوضح ابن القلانسى ذلك بقوله : « ورد الخبر من « شيزر » بأن جماعة من الباطنية من أهل « أفاميه » و« سرمين » و« معرة النعمان » [٢] ، و« معرة مصرين » [٣]، فى فصح النصارى ، وثبوا فى حصن « شيزر » على غفلة من أهله، فى مائة راجل ، فملكوه وأخرجوا جماعته ، وأغلقوا باب الحصن ، وصعدوا إلى القلعة ، فملكوها وأبراجها » [٤].

كان احتلال النزارية حصن « شيزر » نتيجة طبيعية لمذبحة حلب ، لأنهم أرادوا باحتلاله أن يتخذوا مكانا يلجأون إليه ، بعد أن أصابهم ما أصابهم . لذلك يقول ابن الفرات [٥] : إنه « بعد الإيقاع بالإسماعيلية

---

(١) أنظر كتابنا « اسماعيلية الشام من أقدم العصور حتى اليوم » .

(٢) معرة النعمان : بين حلب وحماة ، وهى مدينة مشهورة من أعمال حمص وينسب إليها أبو العلاء المعرى الشاعر المطبوع .

(٣) كورة بنواحى حلب ومن أعمالها .

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٩٠ .

(٥) الدول والملوك ، جـ ١ ورقة ٧١ .

الباطنية فى حلب ، تجمعوا إلى «شيزر» ، وصار بها جماعة كثيرة ، ورتبوا أحوالهم ، وفكروا فى تحصين حصن « شيزر » . والذى جذبهم إلى هذا الحصن حسن موقعه ، فقد كان يستقر فوق جبل منيع يتعذر الوصول إليه ، ويقع بالقرب من نهر الأورنت ـ العاصى ـ فكأن الدافع إلى امتلاكه هو حسن موقعه أولا ، والرغبة فى الاستقرار ببلاد الشام ثانيا .

أما طريقة احتلالهم هذا الحصن ، فإنه ما كاد أمراؤه من بنى منقذ ، يخرجون منه يوم الشعانين[1] لمشاهدة حفلات ذلك اليوم ، حتى انقض النزارية عليه واحتلوه . وهكذا « اغتنم الإسماعيلية الباطنية ، الذين تجمعوا بشيزر ، خلو البلاد من العامة ، وخلو القلعة من الأمراء والجند ، واجتمعوا ، ووثبوا فى الحصن ، وملكوه[2] » .

إلا أنه على الرغم من هذا النجاح الوقتى ، لم يتمكن النزارية من الإبقاء على هذا الحصن طويلا ، لأن أصحابه ، الذين لم يكونوا يشكون يوما فى إخلاص هؤلاء النزارية اللاجئين إليهم ، لما تيقنوا من خيانتهم ، تسللوا إلى الحصن بمساعدة نسائهم ، وأحاطوا بالباطنية ، وأفنوهم عن آخرهم ، وعلى رأسهم الداعى إبراهيم بن إسماعيل العجمى السابق الذكر ، وتتبعوا جميع من كان على مذهبهم فى «شيزر» وفتكوا بهم .

وكانت خسارة النزارية جسيمة ، وخاصة بعد أن نالهم ما نالهم فى حلب ، وقد أدرك زعيمهم الأكبر فى « آلموت » ـ الحسن الصباح ـ ذلك ، فأرسل إليهم يعزيهم ويشجعهم فى الوقت نفسه . ليكونوا مُثُلا عليا

---

(١) أحد أعياد المسيحيين المشهورة .

(٢) ابن الفرات : الدول والملوك ، ج ١ ورقة ٧١ .

يحتذيها إخوانهم النزارية الآخرون ، فى بلاد الشام . وفى ذلك يقول ابن الفرات[١] ، ووجد بتو منتقدم الإسماعيلية رقعة من حسن بن الصباح ، فيها: رحمكم الله يا إخواننا ! لن يصاد من الطير إلا من يحسن التسبيح لا غير» ، والذى نستطيع استنتاجه من تلك الرسالة المقتضبة ، أن الحسن الصباح كان على علم تام بكل ما يحوط نزاريته فى بلاد الشام بطريق الحمام الزاجل ، وأنه هو نفسه الذى كان يضع خطط الهجوم على القلاع بتلك البلاد ، وكان ذلك فى سنة ٥٠٧ هـ

ومعنى هذا أن النزارية خذلوا فى «شيزر» ، كما خذلوا فى حلب ، ولكنهم رغم هذا كله ، كانوا لا يزالون قوة يخشى الأمراء بأسهم ، فقد تنفسوا الصعداء بموت ألب أرسلان - تاج الملوك - ابن رضوان ، صاحب حلب ، وسروا لتوليه «إيلغازى» ، أتابك ماردين[٢] وحلب مكانه ، وجذبوه إلى عجلتهم ، فكان يتودد إليهم ، مقلدا الملك رضوان فى ذلك السبيل ، ولهذا عاد نفوذهم قويا فى مدينة حلب ، وبذلوا جهودا متصلة فى سبيل الاستيلاء على قلعة الشريف ، المجاورة لهذه المدينة .

وقد نفذ هذا الأسلوب الجديد ، فى الاستيلاء على القلاع ، داع له شهرته فى تاريخ النزارية ، هو سلف مقدم الدعوة سنان ، ويدعى الشيخ أبا محمد ، ولا نعرف عنه شيئا كثيرا ، اللهم إلا أنه كان قد أرسل فى سنة ٥٠٠ هـ ، إلى الشام داعيا بسيطا[٣] ، وأنه استطاع الإفلات من مذابح حلب وشيزر ،

---

(١) تاريخ الدول والملوك ، ج ١ ورقة ٧١ . وفى الأصل إلا من يحسن التسبيح ، والصواب إلا ما يحسن التسبيح

(٢) ماردين : قلعة منيعة ، تشرف على مدينة نصيبين ، ذات موقع حسن يتحكم فى السهول المجاورة .

وتصادق آخر الأمر مع « نجم الدين إيلغازى » . وتمكن بهذه الصداقة من أن يعيد للنزارية نفوذهم فى هذه المدينة . ولا نستبعد أن يكون المقدم . أبو محمد . هو الذى تمكن من جعل إيلغازى . نجم الدين . يشرك طغتكين . صاحب دمشق . فى الاستعانة بالنزارية والتحالف معهم . ولا يبعد كذلك أن يكون مقدم الدعوة . أبو محمد هذا . على اتصال بالداعى بهرام . زعيم النزارية بدمشق . كما لا يبعد أن يكون هو الذى أرسل الداعى بهرام إلى دمشق . لتكوين هيئة نزارية منظمة هناك . بعد أن فشلت تجارب الشمال « حلب . أفامية . شيزر » .

والذى لا نستطيع إنكاره هو صداقة المقدم أبى محمد النزارى لنجم الدين إيلغازى . ولذلك حين أرسل هذا الداعى الكبير رسولا إليه . يطلب منه قلعة الشريف . كان مع الرسول النزارى هدايا كثيرة . تدل على تلك الصداقة . وإن رد « إيلغازى » على النزارية يؤيد ذلك . أوضح ابن الفرات[1] هذا كله فى قوله : « وخرج رسول أبى محمد . رئيس الإسماعيلية فى حلب . إلى « ماردين » . إلى عند نجم الدين إيلغازى . ومعه هدية سنية . وقود[2] كثير . وكان بينه وبين إيلغازى مصادقة . ومعه كتاب فيه : إننا ضيوفك وقد كثرت ثقلتنا . ونريد أن تمن علينا بإطلاق قلعة الشريف . لنتخذها مسكنا وملاذا نأوى إليه » .

---

(١) الدول والملوك . ج ٢ ورقة ٣٩ — ٤٠ .

(٢) القود : القصاص . وقتل القاتل مقابل القتيل . والمعنى أخذوا معهم دواب وهدايا كثيرة .

وقد أجاب «نجم الدين» (١) إيلغازى النزارية بما يدل على اللباقة ، ولكنه يدل فى الوقت نفسه على الخوف من النزارية ، فقد تظاهر لهم بأنه أمر بتخريب هذه القلعة قبل أن يصل الرسول النزارى إليه بقليل، وأشار إشارة ذات معنى لكاتبه ، فأرسل هذا رسالة لحماة القلعة ، عن طريق الحمام الزاجل ، يأمرهم فيها بتهديم السور الذى يفصل بين مدينة حلب وبين القلعة ، كما سلم إلى الرسول رسالة أخرى ، وفيها يأمر بتسليم القلعة إليه ، فلما وصل الرسول إليها ، كان الأمر على غير ما يرغب النزارية . ونستطيع أن نستبين من أسلوب «إيلغازى» مدى حسن العلاقة بينه وبينهم، ومدى خوفه منهم أيضا .

وكان ما حدث صدمة كبيرة أصابت الإسماعيلية ، الذين كانوا يبنون الآمال الكبار على أخذ هذه القلعة ، للاستقرار فيها، وتقوية مركزهم فى

---

(١) جاء فى عبارة ابن الفرات (ج ٢ ورقة ٤٠) المستفيضة ما يلى: « فقال الأمير إيلغازي للرسول من غير توقف ولا تؤدة : والله قد أمرت البارحة بهدمها ، ولو تقدم قدومك لسلمتها إليكم ، والتفت إلى كاتبه ، وقال : اكتب له كتابا بتسليم القلعة إليهم إن كانت على حالها . ففهم الكاتب مراده ، فتباطأ بالرسول . وأمر الأمير إيلغازى كاتبه أن يكتب على جناح طائر بهدم السور الذى بينها وبين حلب ، وتقصير سورها الخارجى ، وبصلب جماعة من أهل الحبوس [السجون] الذين وجبت عليهم الديات ، ويشاع عنهم أنهم كمنوا فيها ، وأرادوا تسليمها إلى الفرنج ، وأن يصعد إليها جماعة من وجوه الحلبيين ببيوتهم وأهاليهم ، وألا يؤخر ذلك . وكتب للرسول كتابا فى آخر النهار وأرسله ، فجاء ، فوجدها قد انهدمت ، وقد سكنها جماعة من وجوه الشيعة والسنة » .

بلاد الشام ، ولهذا طلبوا من جديد أخذ القلعة ، وتعهدوا بإصلاحها وإقامة سورها . فكان رد إيلغازى لأول مرة دليلا آخر على أنه يريد ألا يفسد ما بينه وبين النزارية من مودة ، إذ أجابهم أنه عاجز أمام أهل المدينة السنيين ، وخطأهم فى عدم الاتصال سرا به . ومهما يكن من أمر . فقد أعاد الداعى أبو محمد الرسالة . وفيها « نحن نأخذها ونعمرها » ، فقال لهم إيلغازى : هذا ثغر قريب من الفرنج ، وقد صعد إليه وجوه المدينة وأهل الدين ، ولا يمكننى مناصبتهم [معاداتهم] ، فإنى أخاف أن يفسد حال البلد . ولو أنكم أتيتمونى فى السر ولا تظهرون ذلك ! . » وقد فعل مثل هذا عماد الدين زنكى ، وابنه نور الدين محمود .

وهكذا كان أمراء المسلمين يخافون صولة النزارية فى الشام ، كيلا تقع فى أيديهم . ومما لا مراء فيه ، أن امتلاك النزارية القلاع المجاورة للمدن الكبيرة ، كحلب وغيرها ، يعتبر من أكبر دواعى نجاحهم فى نشر الدعوة ، ومد نفوذهم . ونشر الرعب والذعر بين مخالفيهم فى تلك المدن . وقد أدرك ابن الفرات (١) ذلك فقال : « ولولا ما وفق الله تعالى إيلغازى ، والأمير عماد الدين زنكى ، وولده العادل نور الدين محمود ، فيما لقيهم إياه من هذا الطريق ، الذى صدوا به هذه الطائفة الملحدة الخبيثة ، لكانوا قد استولوا على هـــذه البلاد ، وسرت دعوتهم الخبيثة فى الوهاد والنجاد » .

وبهذا نرى أن النزارية فى بلاد الشام أخفقوا فى مسعاهم فى سبيل أخذ قلعة الشريف ، كما أخفقوا فى الاستيلاء على حصن شيزر ، وقلعة حلب من قبل ،

---

(١) الدول والملوك ، ج ٢ ورقة ٤٠ .

وبعبارة أخرى ، لم يستطع النزارية بالشام أن يصلوا إلى أغراضهم بالعنف أو باللين . ومن ثم لجأوا إلى طريقة أخرى واتجاه آخر . يتلخص فى نشر دعوتهم فى بلاد الجزيرة . وفى إقليم حلب . ما دام «نجم الدين إيلغازى» صاحب «ماردين» على هواهم . وبفضل هذه السياسة الجديدة ، أخذ نفوذهم يزداد كثيرا فى بلاد ما بين النهرين ، وبلاد الجزيرة ، وعلى الأخص فى مدينتى آمد[1] وديار بكر . ولم يأت سنة ٥١٨ هـ حتى أصبحوا خطرا على السنيين فى مدينة آمد ، ودبر لهم هؤلاء السنيون مؤامرة ، كتلك التى دبرت فى حلب ، وفتكوا بعدد كبير منهم . مما يدل على كثرة عددهم . وهكذا «ثار أهل آمد بمن فيها من الإسماعيلية ، وكانوا قد كثروا ، فقتلوا منهم نحو سبعمائة رجل ، فضعف أمرهم بها ، بعد هذه الوقعة»[2].

والحق أن أهل «آمد» ثاروا بالنزارية حين أدركوا أنهم يسعون إلى احتلال مدينتهم ، مما يدل على أن محاولة احتلال هذه المدينة ، إنما هو مرحلة أخرى من مراحل استقرارهم فى هذه البلاد . يقول ابن الجوزى[3] «ووصل الخبر بأن الباطنية وثبوا فى آمد ليملكوها ، فظهر عليهم أهل البلد ، فقتلوا من الباطنية سبعمائة» ، ولو قدر للنزارية النجاح فى هذه الجهات ، لسهل عليهم الاتصال بالفرع النزارى الرئيسى فى فارس ، ولأصبحت بلاد الجزيرة معبرا يعبره النزارية إلى إقليم قوهستان وبلاد

---

(١) مدينة آمد : من أعظم مدن ديار بكر فى شمال العراق .

(٢) ابن الفرات : الدول والملوك ، جـ ٢ ورقة ٨٩ .

(٣) ابن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ورقة ٦٩ .

الديلم وغيرهما ، ولسهل عليهم بعد ذلك تحقيق أمنيتهم الكبرى فى جعل العالم الإسلامى منطقة نفوذ لهم .

كانت سلسلة النكبات التى حاقت بالنزارية مذ وطئت أقدامهم بلاد الشام، خير درس لهم . فقد تعلموا من هذه الحوادث جميعا ، أن شمال الشام لم يعد أرضا صالحة لدعوتهم . ومن ثم ولوا وجوههم شطر دمشق ، بعد أن رأوا صاحبها - طغتكين - يعطف عليهم عطفا شديدا ، وبعد أن لمسوا بغض « بكلاق بن بهرام » خليفة إيلغازى ، فقد احتل مدينة حلب فى سنة ٥١٧ هـ (١١٢٧ م) ، ولم يمض غير قليل ، حتى قبض على زعيم النزارية فى هذه المدينة . وأمرهم جميعا بمغادرتها ، فخرجوا منها بمتاعهم وأموالهم وعائلاتهم »[1] ، وولوا وجوههم نحو دمشق .

وبهذا نرى أن نزارية الشام ساعدوا على ضعف إخوانهم الفاطميين الإسماعيلية ، فأزالوا ما بقى لهم من نفوذ فى تلك البلاد . ولا غرو فإن العداء بين هؤلاء وأولئك كان محتدما منذ وفاة المستنصر ، وإن ما عمله النزارية - أتباع الحسن الصباح - مع الفاطميين فى بلاد الشام ، هو نوع من ذلك الصراع . كما ساعدوا الصليبيين أيضا فى ذلك الدور بما قاموا به من اغتيالات منظمة ضد الزعماء السنيين ، فقد كان لقتلهم جناح الدولة أثر فى زيادة نفوذ الصليبيين فى شمال الشام . أضف إلى ذلك أن ما أحدثوه فى أفامية سنة ٤٩٩ هـ ساعد الصليبيين على احتلالهم هذا الحصن الخطير ، ذا الموقع الحربى البديع ، كل هذا يدل دلالة قاطعة على أن النزارية بالشام كانوا عونا للصليبيين فى هذا الدور على الأقل

---

(١) Defremery; Nouvelles Recherchs (J.A. 1854), p. 408

أضف إلى ذلك أن النزارية استطاعوا أن يجذبوا إليهم كثيرا من أمراء الشام وأتابكتها . فقد خضع لنفوذهم - على ما رأينا - رضوان السلجوقى - صاحب حلب - واستمالوا إليهم خليفته «نجم الدين إيلغازى» ، وبدأ نفوذهم فى أخريات حياة الحسن الصباح فى الاتجاه إلى دمشق جنوبا، وفى هذا خير دليل على نجاح النزارية فى الشام من الناحية الدبلوماسية .

أما محاولاتهم الكثيرة التى بذلوها للاستقرار فى تلك البلاد، فقد منيت جميعها بالفشل ، لأنهم ركزوا جهودهم فى الاستيلاء على المدن أو قلاعها ، ولو اتجهوا - كإخوانهم المشارقة - إلى القلاع الجبلية، فبنوا بعضا واغتصبوا مثلهم بعضا، لأراحوا أنفسهم ، وحقنوا دماءهم التى فقدوها فى حلب وشيزر وآمد . هذا وقد عجز النزارية عن مذهبة البلاد ، التى زاد نفوذهم فيها ، بالمذهب الإسماعيلى ، ولو استطاعوا فعل ذلك ، لما نكبوا بحلب أو غيرها. وبعبارة أخرى ، كان نفوذ السنيين قويا ضدهم فى شمال بلاد الشام ، طيلة عهد الصباح ، فلم يستطيعوا أن يحققوا آمالهم كاملة هناك ، وليس معنى ذلك أنهم لم يكونوا قوة يؤبه لها ، فقد كان إيلغازى يتملقهم لقوتهم ، كما قلده طغتكين أتابك دمشق فى ذلك ، واستمروا فى الوقت نفسه يعملون فى استتار، ومهدوا الطريق لراشد الدين سنان ، مقدم النزارية فى عهد صلاح الدين، ودوخوا الصليبيين ، وأربكوا نور الدين محمود - صاحب الشام - ثم صلاح الدين الأيوبى من بعده (١) .

---

(١) انظر كتاب « اسماعيلية الشام من أقدم العصور حتى اليوم » للمؤلف . وكذلك كتاب «أئمة النزارية أجداد أغاخان » .

وهكذا نجح الحسن الصباح نجاحا منقطع النظير فى بلاد فارس وخراسان ، ولكنه لم يستطع أن يحقق أمنيته كاملة فى بلاد الشام ، فترك مهمة الاستقرار فى هذه البلاد إلى خلفائه من بعده ، حيث استطاعوا أن يقلدوه ، فيستقروا فى قلاع الدعوة المشهورة فى جبال لبنان ، تلك القلاع التى ظلت قذى فى أعين الصليبيين والسنيين قرنين من الزمان ، حتى استطاع الظاهر بيبرس ، فى أواخر القرن السابع الهجرى ، أن يضمها إلى ملكه ، ويزيل ما بقى للنزارية من نفوذ فى بلاد الشام .

(٤) صراع الحسن الصباح مع المستعلية

رأينا أن الحسن الصباح لم يثر على الفاطميين فى عهد الخليفة المستنصر ، فظل على إخلاصه لهذا الخليفة ، لكنه ثار عليهم بعد تولية ابنه المستعلى ، الذى قتل أخاه الأكبر نزارا ، وهكذا ، كما يقول النويرى : « انفصل أهل « آلموت » عن العبيديين (أى الفاطميين) من ذلك الوقت ، وشرع الإسماعيلية فى افتتاح الحصون ، وأخذوا قلعة وبنوا أخرى ، وأظهروا شغل السكين » (١) .

وقد ادعى الحسن أنه نائب عن الإمام نزار ، أو بالأحرى نائب الإمام المستور - كما رأينا - ولم يعترف بقتله ؛ وادعى أنه لم يمت ، وانهم « ما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شبّه لهم » . ولكى يبرهن لهم على صحة دعواه ، اخترع من الآراء ما يلائم أذهان الباطنية فى فارس ، ويتفق مع

---

(١) النويرى : نهاية الأرب (مخطوط بدار الكتب) ، ج ٢٨ ورقة ٧٥ .

فلسفتهم الدينية ، فادعى أن نزارا تجسم فى بطن امرأة ، وأنه حضر إلى «الموت» على تلك الصفة ، فكان هذا لونا جديدا من ألوان الصراع مع المستعلية الفاطميين . لأن الصباح ثار على الإمامة الفاطمية الظاهرة ، بمناداته بالإمامة النزارية المستورة .

يقول النويرى (١) : « وكان الصباح . . . لما قتل نزار طالبوه به ، فقال : إنه بين أعداء كثيرة ، فى بلاد بعيدة ، ولا يمكنه الحضور . وقد عزم على أن يختفى فى بطن أمرأة ، ويجىء سالما . ويستأنف الولادة ، فقنعوا بذلك ، فأحضر لهم جارية ، وقال : إنه قد اختفى فى هذه ، فعظموها ، فولدت ابنا سماه « حسنا » ، وقال : تغيير الاسم لتغيير الصورة » .

ترى أن تلك القصة مفتعلة على الحسن ـ على ما يظهر ـ لأنه لم يترك فى كتابه « ساراجوزاشت » مثل تلك القصة الخيالية . على أن القلقشندى (٢) يبالغ ، فيرى أن النزارية كانوا يعتقدون أن نزارا خرج من الإسكندرية حملا فى بطن امرأة ، تقية على نفسه ، وخاض بلاد الأعداء ، حتى صار إلى « الموت » ، مع أننا نعلم أن نزارا مات فى سنة ٤٨٨ هـ مدفونا بين جدارين ، فى قصر الخلافة بالقاهرة .

وأهم من ذلك ، ما ذهب الفارقى إليه ، من دعواه أن الحسن الصباح زوج ابنته من نزار بن المستنصر حين كان بمصر ، فانجبت هذه أبناء من نزار

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ورقة ٧٦ .

(٢) صبح الأعشى ، جـ ١٣ ص ٢٣٧ .

ابن المستنصر. ويدعى أيضا أن نزارا قصد قلعة «آلموت»، وعاش هناك مع الحسن ؛ فيقول : « خرج نزار من مصر ، ومضى إلى خراسان ، إلى بيت الصباح ، فى قلعة «آلموت»، واتصل إليهم . وأولد هذا الابن (أى محمد بن نزار) من بنت الصباح ، ومات هناك [١] » . ولا يمكننا تصديق ذلك ، ما دام التاريخ الصحيح يؤكد أن الحسن الصباح لم يصاهر نزارا . إلا أن هذه الدعاوى تبين لنا العداء المستحكم بين النزارية والمستعلية .

على أن هناك رأيا يكاد يكون أقرب إلى الصحة من تلك الآراء جميعا ، وهو ما ذهب البنداري إليه ، من أن الخليفة المستنصر الفاطمى ، أرسل فى أخريات حياته مع بعض خواصه من المقربين إليه طفلا ، ليعيش فى « آلموت » ، بعيدا عن مؤامرات قصر الخلافة بالقاهرة ، وكان ذلك الطفل أحد أبناء نزار بن المستنصر [٢] . ولو صحت هذه الرواية ، كانت دليلا على صحة ماذهب إليه النزارية ، من أن المستنصر وضع الإمامة فى بيت ابنه نزار دون المستعلى ، وأن المؤامرة التى حيكت ضد بيت نزار هذا ، قد بدأت فى عهد المستنصر نفسه ، الذى كان يعطف على ابنه نزار ، ويود استقرار الإمامة فيه ، وفى أبنائه من بعده .

وعلى الرغم من هذا الاختلاف فى الآراء ، فإنها جميعا تدل على نمو مركز الحسن الصباح فى عالم دعوة نزار ، سواء أكان ذلك فى مصر أو فى بلاد فارس . وقد صدق فان برشم [٣] فى قوله : « ما كاد الحسن

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٩ .

(٢) الأصفهانى : تاريخ السلاجقة ، ص ٣٨ .

(٣) Berchem : Epigraphie, (J. A, 1897) p. 272

الصباح يستقر فى « آلموت » ، حتى هجر الأسرة الحاكمة (الفاطميين) ، كى يطير بنفس أجنحتها » . ولا غرو فقد كان يعتقد أنه يمثل الفاطميين الحقيقيين ، على حين كان يعتبر المستعلى وبيت بدر الجمالى فى مصر ، من الثوار على الفاطميين أنفسهم .

ولا يبعد أن يكون إرسال الحسن دعاته إلى الشام ، إنما هو لمقاومة المستعلية الذين كان نفوذهم سائدا فى تلك البلاد . وآية ذلك ، ما رأيناه من سلوك أبى الفتح السرميني ، كبير دعاة الحسن الصباح فى بلاد الشام ، الذى حاول أخذ «أفامية» ، ونشر المذهب النزارى ، ومحاربة المذهب المستعلىّ بها ، لأن واليها السابق وكثيرين من أهلها كانوا يدينون بمبادىء الدعوة القديمة (الدعوة المستعلية) .

وقد أدرك الفاطميون المستعلية نوايا النزارية بالشام ، فأخذوا يتجسسون عليهم ويتعرفون أحوالهم ، وإليك حادثة تبين لك صحة هذا القول ، ذلك أنه فى سنة ٥١٤ هـ (١١٢٠م) ، وثب باطنى نزارى بدمشق ، على رجل من أهل مدينة حلب ، فقتله . واجتهد الناس فى تخليصه ، فلم يقدروا . ولما قتله الباطنى لم يعرضوا له ، خوفا من هذه الطائفة ، وادعى الباطنى أن هذا الحلبى يتجسس عليهم ، ويوصل أخبارهم إلى الأفضل بن أمير الجيوش ، وزير الديار المصرية (١) ، مما يدل على كراهة النزارية والمستعلية بعضهم لبعض ، ويدل فى الوقت نفسه على خوف الفاطميين من نزارية الشام خاصة .

ويقال : إن النزارية هم الذين قتلوا الأفضل شاهنشاه فى سنة ٥١٥ هـ ، واجترءوا بعد ذلك ، فعملوا على مد نفوذهم فى مصر نفسها . غير أن الوزير الجديد ، المأمون البطائحى ، كان شديد الاحتراس والخوف منهم .

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، جـ ٢ ورقة ٤٠

ويهمنا هنا أن نوضح سياسة الحسن الصباح إزاء الفاطميين فى مصر نفسها. فقد اتخذ له جواسيس بمدينة القاهرة ، حاضرة الفاطميين، وأخذ يرسل الأموال إليهم وكله أمل فى الفتك بالخليفة الآمر. ووزيره الجديد ، المأمون البطائحى (٥١٥هـ — ٥١٩هـ) . زاد ابن ميسر[1] هذا الأمر وضوحا فقال : «فلما ولى المأمون، بلغه أن ابن صباح والباطنية فرحوا لموت الأفضل وقتله، وأنه قد امتدت آمالهم لقتل الآمر والمأمون (البطائحى) معا ، وأنهم أرسلوا رسلا لأصحابهم المقيمين فى مصر، ومعهم أموال للتفرقة عليهم » .

ويبين لنا هذا مدى توغل جاسوسية النزارية فى مصر وخطرها. فقد كان لهم بها جماعات كبيرة ، حتى كان أساتذة أبناء الخليفة الآمر من النزارية . ولا مراء فى أنه كان لمهارة الوزير البطائحى فى البحث عن النزارية أثره الطيب فى اكتشاف أمرهم ، وإخفاقهم فى مصر ، ولو نجحوا فى تلك البلاد، لأزالوا نفوذ والدعوة القديمة، منها، كما أزالوه من فارس والشام .

ولشدة خوف الفاطميين من النزارية أوقفت حكومتهم نشاطها على البحث عنهم ، وتقصى أخبارهم ، لا بل اتخذوا لهم جواسيس تقتفى آثار النزارية، فى فارس، الذين يخرجون من بلادهم ، فكان الكثير من نشاطهم يعرفه الفاطميين ، فيدرءون الخطر قبل وقوعه. ولذلك كان من السهل على الخليفة الآمر ووزيره البطائحى ، أن يجنبا دولتهم خطر النزارية. وتبعا لهذا النشاط الفاطمى الفذ تلاشى خطر النزارية عن مصر أو كاد ، فمن اكتشف أمره منهم قتل ، ومن خرج من بلاده متجها إلى مصر قتل ، قبل أن يصل إليها .

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر، ج ٢ ص ٦٥.

يقول ابن ميسر[١] فى مهارة البطائحى ونشاطه ضد النزارية : « ثم إنه أركب فى يوم من الأيام جماعة من العسكر وفرقهم . وأمر بمسك من عيَّنه . فمسك منهم جماعة كثيرة . منهم رجل كان يقرىء أولاد الخليفة الآمر، ومسك معهم المال الذى سيره ابن صباح، برسم نفقة مصر، فأخذه ، وكانت هذه الفعلة من المأمون من عجائب الحذق . وبث مع ذلك الجواسيس فى أقطار الأرض . وكان الباطنى إذا خرج من « آلموت » لا تزال أخباره تصل إلى المأمون متعاقبة ، حتى يصل إلى المأمون ، وحتى يصل إلى بلبيس ، فيمسك بها ، ويحمل إليه ، فيقتله » .

ويتمثل الصراع بين الفريقين فى شحذ كل فريق منهما ذهنه وهمته فى دحض آراء خصمه وتفنيدها ، بتأليف الكتب وإذاعتها بين الأتباع ، فقد وقف الحسن يقارع المستعلوية حججهم ، ويملأ مكاتب « آلموت » ، وقلاع الدعوة بالمؤلفات الكثيرة التى يثبت فيها صحة إمامة نزار بن المستنصر ، وبطلان إمامة المستعلى . كما أوقفت الدولة الفاطمية أقلام مؤلفيها ودعاتها وفقهائها ، للرد على النزارية ، وتفنيد دعاويهم ، التى تنادى بصحة إمامة نزار بن المستنصر . وبهذا وضع الحسن الصباح لخلفائه المنهاج الذى يجب عليهم أن يسلكوه حيال الفاطميين .

٥ — خاتمة القول فى الحسن الصباح

(أ) أخلاق الحسن الصباح

يعتبر الحسن الصباح من الزعماء القلائل الذين يضن الدهر بهم ، والذين يظهرون من حين إلى حين فى هذا الكون ، فيملئونه إعجابا بهم

---

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٦٦ .

وتقديرا لهم . وقد امتاز الحسن الصباح بالتحلى بصفات جعلته فى مصاف كبار زعماء الإسماعيلية ، بل زعماء المسلمين السنيين ، واستطاع بفضل ما كان يتمتع به من خلال طيبة ، أن يكون دولته النزارية وسط أعاصير السنيين ومذاهبهم .

ومن أهم ما كان يتمتع به هذا الزعيم بعد نظره . فقد كان لهذه الخلة — بعد النظر — أثرها الكبير فى حياته . انظره وقد تنبأ للخيام الشاعر بالنبوغ العلمى ، ولأنوشروان بن خالد ، وزير السلطان محمود فيما بعد ، بالنبوغ السياسى كذلك ، فعقد أواصر الصداقة معهما ، حتى يستغل نفوذهما فى المستقبل . ثم أليس فى تركه المذهب الاثنا عشرى الذى مل أنصاره انتظار إمامه ، وانتقاله بعد ذلك إلى المذهب الإسماعيلى ، الذى يتيح للرجل العامل الثابه أن يظهر على مسرح السياسة ، ويحقق آماله وطموحه ؟ أليس هذا الانتقال دليلا قويا على بعد نظر الحسن الصباح ؟ فقد أصبح بسبب بعد نظره هذا فى مركز لا يقل عن مركز الملوك والأباطرة .

حقا لقد جر بعد نظر الحسن عليه كثيرا من المتاعب ، غير أن الزعماء لا يهتمون بما يناهم فى سبيل تحقيق مآربهم الكبيرة . يدل على هذا ، ذلك الصدام العنيف الذى احتدم بينه وبين بدر الجمالى ، وزير المستنصر ، فقد أدرك بثاقب نظره أن الدعوة الإسماعيلية فى مصر سوف تنهار على أيدى هؤلاء الوزراء النفعيين ، وقرر الاصطدام معهم بعد ذلك . ولو لم يكن الحسن الصباح بعيد النظر لثار على الفاطميين منذ احتلاله «آلموت» ، واستشعاره القوة والنفوذ ، ولكنه آثر الانتظار . فلما مات المستنصر سنة ٤٨٧ هـ ، وقتل الخليفة المستعلى أخاه نزارا فى السنة التالية ، نادى بإمامة نزار هذا ، واستقل بإسماعيلية الشرق عن إسماعيلية مصر . فكان ما ناله

الحسن من نجاح كبير أثرا من آثار بعد نظره . ثم إن اعتماد الحسن الصباح على القلاع القوية فى قلل الجبال واتخاذها دور هجرة للإسماعيلية النزارية دليل آخر على بعد نظره . فقد استطاع بفضلها أن يحتفظ بقوته سليمة لم يمسسها سوء .

وفى الحق أن الحسن الصباح كان نهازا للفرص كذلك ، فلم يترك فرصة تمر إلا استغلها ، فقد انتهز فرصة توظفه فى حكومة السلاجقة ، وحاول اكتساب رضاء السلاطين أنفسهم ، حتى أوشك أن يصل إلى الوزارة ، وانتهز فرصة الحروب الأهلية التى أعقبت موت السلطان ملكشاه ، وقوى فرقته ، فبنى قلاعا واشترى وأصلح أخرى . بل لقد اندمج فى هذه الحروب الأهلية ، فأعان جماعة من أبناء ملكشاه على إخوتهم ، على الرغم من أنه كان يبغض الجميع ، كما كان هو نفسه مبغضا للجميع .

ويدلنا على جبلة الحسن الانتهازية ، أنه ما كاد يرى بلاد الشام مضطربة ، يسودها الشقاق ، ويغمرها اختلاف أمراء السلاجقة وأتابكتهم ، ويمزقها صراع السنيين والفاطميين مع الصليبيين . ما كاد يرى هذا كله حتى حزم أمره ، وبعث بدعاته إلى تلك البلاد ، علّه ينال منها غرضا . كل هذه الأمور خير دليل على بعد نظر الحسن وانتهازه الفرص .

ويعتبر الصبر من أبرز الصفات التى كان الحسن يتحلى بها ، حقا ! كان الحسن الصباح شهما جلدا ، لا تقرعه الحوادث ، فكان يتغلب عليها بثباته وجلده . انظره وقد عصفت العواصف الجامحة بالسفينة التى كانت تقله فى البحر الأبيض ، أثناء عودته إلى بلاده ، وهو ثابت متجلد ، فى الوقت الذى ملأ اليأس والفرق قلوب رفقائه ، حق لقد أذهل بتجلده

وصبره هؤلاء الرفقاء، وأعجبوا به أيما إعجاب، ولا غرو فقد كان رجلا يصرع الحوادث فلا تستطيع هى أن تصرعه. وخير دليل على صبره وجلده أنه استطاع، ومعه سبعون رجلا، أن يقاوم جحافل السلاجقة، وأن يدير دفة هذه الحروب الميئوس من نجاحها، إدارة تدل على الثبات والقوة. ولو أن رجلا غير الحسن كان على رأس ذلك النفر القليل، لخارت قواه أمام تلك الأهوال، لكنه صبر، فكان صبره من أكبر عوامل نصره.

على أن ميل الحسن الصباح إلى الدقة والنظام كان من أبرز صفاته أيضا: فقد كان يهمه أن يكوّن جماعة منظمة، تسير فى سياستها وحروبها، وفى نشر دعوتها، على نظام ثابت، وكان يعتقد أن هذا النظام هو عنصر النجاح الفعال، لذلك اعتمد فى اتخاذ قلاع دعوته على النظام والدقة، فجعل هذه القلاع منظمة بحيث لا تستقبل غير المستجيبين، واتخذها بحيث يمكن الاتصال بها جميعا، وبحيث تكوّن شبكة من وسائل الدفاع القوية التى لا يمكن اختراقها، وجعل من كل قلعة مملكة صغيرة، تخضع لرئيسها المباشر، وجعل القلاع فى كل إقليم تخضع لقلعة رئيسية، وضع عليها زعيما يعترف له بالطاعة جميع الغزارية فى إقليمه بالطاعة. ومن ثم لم نسمع عن اعتصاب فى قلعة ما، أو نسمع عن ثورة فى هذه القلاع، بل كانت الطاعة رائد الجميع، كل هذا يرجع إلى حسن تنظيم الحسن الصباح لأعماله.

ومما يدل على أن النظام كان من أبرز صفات الحسن أنه استطاع بحسن دقته وهو موظف فى ديوان السلاجقة، أن ينجز فى أربعين يوما، عملا عجز نظام الملك نفسه عن إتمامه فى عامين، ما ذلك إلا لأنه لجأ

إلى النظام ، واستعان بالموظفين المختصين ، فنال النجاح . ولما أحدث نظام الملك الاضطراب فى تقرير الحسن ، عجز هذا عن شرحه ، لأنه لم يعتد الفوضى ، ولم يعرف غير النظام .

على أن تنظيم الحسن المجتمع النزارى يعتبر خير دليل على حبه النظام والدقة . فقد استطاع بفضل هذا التنظيم الدقيق أن يكون مجتمعا مرتبطا بعضه ببعض تمام الارتباط ، وأن يجعل جميع أعضائه يشعرون له بالتبعية ، ويقدسونه ، فقسمهم إلى طبقات . كل طبقة تشعر بكيانها ، وتحترم غيرها من الطبقات الأخرى ، وجعل من نفسه المشرف الأول عليها جميعا . ويكفيه فخرا أنه استطاع بلباقته وحسن تنظيمه أن يخلق جماعة الفداوية ، وأن يعلمهم كيف يكونون آلة طيعة فى يديه ، فقد كان لاغتيالاتهم السياسية المنظمة دويها الكبير فى الشرق والغرب . وإنك لو تتبعت حركات الفداوية ودرست أساليبهم فى تعقب ضحاياهم ، لأدركت الدقة والنظام ، اللذين بفضلهما نالوا ما نالوه من نجاح ، وحققوا كثيرا من أغراضهم .

وليس هذا فقط ، بل لقد وضع الحسن لنشر « الدعوة الجديدة » طرقا دقيقة تدل على اتخاذه النظام وسيلة للنجاح ، فحتم على دعاته أن ينهجوا مناهج غاية فى النظام والدقة : حتم عليهم أن يدرسوا نفسية المستجيب دراسة وافية ، كما يدرس الطبيب حالة المريض ، وأن يعالجوه بعد ذلك بالعلاج الذى يستطيع هضمه ، متدرجين معه ، فى نظام ودقة ، فى درجات حددها لهم ، حتى يصلوا به فى النهاية إلى أعلى الطبقات . وعندنا أنه لولا هذا التنظيم ، لما استطاع الحسن الصباح أن يخلق مجتمعه

أما طموح الحسن الصباح، فكان من أهم صفاته . يدل على ذلك أنه لم يستطع أن يعمل موظفا صغيرا من موظفي ديوان السلاجقة ، فأخذ يسعى للوصول إلى الوزارة نفسها ، مما كان سببا فى طرده . وكذلك لم يشأ الحسن أن يعمل داعيا بسيطا من دعاة الإسماعيلية. بل قاده طموحه إلى النبوغ . فقصد مصر، حتى عينه المستنصر « حجة » له على خراسان . على أن الرجل الطموح لا تهدأ نفسه ، أو ترضى بما قرر لها ، ولذلك لم يكتف الحسن بوظيفة « الحجة » ، رغم أنها وظيفة سامية ، يتطلع إليها ألوف الدعاة ، ومن ثم سعى إلى خلق دولة تدين له بالطاعة ، فدعا لنزار ابن المستنصر ، وأقام من نفسه نائبا عنه ، ولا ندرى من أين أتته هذه النيابة ، أمن المستنصر حين أخبره بأن نزارا ولى عهده ؟ أم أنه استبد بالأمر دون الرجوع إلى أحد . والمهم أنه انفصل بدعوته الجديدة عن مصر ، فأصبح السيد المطاع بين إسماعيلية فارس وخراسان ، وما وراء النهر ، وبلاد الشام ، فكان بفضل طموحه يتمتع بكل ما يتمتع به الملوك والسلاطين والأباطرة .

وهكذا كان طموح الحسن وما ناله من نجاح يدفعانه إلى الظفر بنجاح آخر ، وخلاصة القول أنه لولا طموح الحسن لظل موظفا بسيطا من موظفي الدولة السلجوقية ، أو لبقى داعيا بسيطا من دعاة الإسماعيلية فى المشرق . ولكن طموحه ، وقوة شخصيته الطاغية ذللا أمامه جميع العقبات ، حتى تربع على عرش النزارية .

وقد كان لطموحه أثر كبير فى أسلوب حياته . كان لا يريد أن يعترف لأحد بالزعامة عليه إلا إذا كان هذا الاعتراف مما يشبع طموحه ،

وكان يخضع المستنصر خضوعا أعمى ، ويرفض أن يخضع لبدر الجمالى ، لأن خضوعه للمستنصر يحقق آماله ، ويتفق مع ميوله المذهبية والسياسية ، وأما خضوعه لبدر الجمالى ، فكان مما لا يتفق وطبيعة طموحه ، أو تربيته الدينية . وقد دفعه طموحه إلى أن لا يخضع لبيت ابن عطاش ، رئيس الدعوة بالمشرق قبله ، وعلى الرغم من حسن علاقته بأحمد بن عبد الملك ، مهد هو الأمور لنفسه ، كى يصبح زعيما عليه . وهكذا كان طموح الحسن عظيم التأثير فى حياته .

أما تقوى الحسن الصباح ، فكانت مضرب المثل . كان الحسن تقيا ورعا ، عمل على تنشئة مجتمعه على التقوى والزهد ، ولا غرو ، فقد كان مثال الرجل القانع ، كما أنه أنشأ أشياعه على التعلق بظاهر الشريعة ، ولم يأمرهم بالخروج عليها ، على ما ذهب إليه بعض ، فلم يشرب واحد من أتباعه الخمر ، وقتل واحدا من أبنائه لاتهامه بشرب الخمر والزنا (١) ، وطرد من « آلموت » رجلا من أنصاره ، ، لا لسبب إلا لأنه كان يتسلى بمزماره ، كما نشّأ بناته ونساءه على كسب حياتهن عن طريق الغزل (٢) ، مع أنه لم يكن فقيرا ، بل كان ذلك الرجل الذى « قطع أوداج الجبابرة » . ولا غرو فإنه لم يخرج من داره فى « آلموت » قاعدة ملكه طيلة حكمه الطويل (٤٨٣ — ٥١٨) سوى مرتين ، ولم يصعد إلى سطح القلعة غير مرة واحدة . وكان يقضى وقته فى الصلاة والتأليف فى أصول عقيدة الإسماعيلية

---

(١) Defremery : Nouvelles Recherches (J.A.1849) pp.36-37

(٢) المستوفى : تاريخ جوزيدة ، ج ١ ص ٤٩٧ .

أو التعليق على كتب أهل السنة والرد عليها . وعلى الرغم من تمسك الحسن بظاهر الشريعة الإسلامية ، إلا أن كتاباته فى المذهب النزارى لم تكن تختلف كثيرا عن الأسس التى وضعها مؤسس المذهب الإسماعيلى ، عبد الله بن ميمون [١] . ولا غرو ، فقد كان كل منهما ، بالإضافة إلى تكوينه نظاما دينيا سياسيا بارعا ، يعتقد أنه من كبار المصلحين الذين أنجبتهم الحياة[٢] .

وبهذه الصفات وغيرها ساد الحسن الصباح ، وأضحى من كبار الشخصيات فى العصور الوسطى .

(ب) وفاة الحسن الصباح :

توفى الحسن الصباح فى سنة ٥١٨ هـ ، بعد أن مهد الأمور لخليفته ، فعهد بالأمر بعده لرجل اشتهر بالإخلاص والتفانى فى حب المذهب النزارى ، ذلك هو «الكيا بزرجميد»[٣] . الذى كان حاكما عاما على قلاع إقليم «رودبار» .

ونفهم من نزول الحسن الصباح إلى «الكيا بزرجميد» عن العرش ، أنه لم يهتم بمبدأ الوراثة ، حتى لقد كان حبه المذهب النزارى يطغى على حبه أبناءه ، وغلا بعض فاعتقد أن الحسن قتل أولاده حتى لا يتقيد بمبدأ الوراثة ، ويبرهن لأنصاره أن عنصر الوراثة ، هو الذى يجب أن يسود بين النزارية ، والحق أن مبدأ الوراثة لم يجد له فى نفس الحسن أثرا ،

---

(١) Ivanow. (J. R. A. S. 1931). p. 534

(٢) Ibid. p. 535

(١) الكيا . معناه الرئيس . وبزرجميد : معناه : من يهب الأمل والرجاء .

وكأن هذا الزعيم رغب فى أن يعطى لخلفائه درسا فى جعل عنصر الصلاحية ، له مكان الصدارة بين النزارية .

وقد حاول الحسن قبل موته أن يجمع قلوب أتباعه حول خليفته «الكيا بزرجميد» ، الذى كان موضع ثقته ، فأمرهم جميعا ، وبخاصة كبار أنصاره ، بالالتفاف حوله ، ومعاونته فى كل صغيرة وكبيرة ، حتى يستطيع أن يحفظ للنزارية هيبتهم ومذهبهم (١) .

ومهما يكن من شىء ، فإنه بموت الحسن الصباح لم نعد نسمع شيئا عن أسرته ، وانتقل الأمر إلى أسرة «الكيا بزرجميد» ، وظل فيها ردحا طويلا من الزمن ، حتى انتقل فى أسرة نزار نفسه ، على ما ادعاه الحسن الثانى فى سنة ٥٥٩ هـ .

(ح) مدى نجاح الحسن الصباح :

إن ما قام به الحسن الصباح من أعمال مجيدة لا يقل أثرا عن أعمال أبى عبد الله الشيعى ، الذى قامت الدولة الفاطمية على يديه ، فقد استطاع الحسن أن يكوّن دولته وسط بحر خضم من السنيين ، الذين يحنقون على المذهب الإسماعيلى ، وبفضل قلاع الدعوة المنيعة ، وتلك الدور المعروفة بدور الدعوة ، استطاع الحسن أن ينشر المذهب النزارى وهو آمن مطمئن . ومهما يكن من شىء فقد استطاع الحسن الصباح أن يقيم دولته من القلاع القوية المتناثرة فى جبال طبرستان ، وقوهستان ، وخراسان وجبال لبنان بالشام . واستطاعت هذه الدولة الفريدة فى نوعها ، الشيعية المذهب ، أن تعيش قرنين من الزمان (٤٨٣ — ٦٥٤ هـ) كانت فيها موضع رهبة العالم السنى .

(١) المستوفى : تاريخ جوزيدة ، ج ١ ص ٤٩٧ .

وتدين هذه الدولة النزارية فى بقائها إلى الحسن الصباح ، فهو الذى سن سنة الاستيطان فى قلاع قوية منيعة ، وهو الذى نظم حدود الدعوة تنظيما روحيا وماديا متقنا. ووضع للدعوة خطوات كان لها أثر بالغ فيما نالته من نجاح . ناهيك عن نظام الفداوية البديع ، وبفضل هذا كله استطاع الحسن أن يكوّن جاسوسية منظمة فى العالم السنى ، كما استطاع أن يخيف الملوك والسلاطين ، فحارب السلطان ملكشاه تارة ، واشتبك مع أبنائه تارة أخرى . فنشأ خلفاؤه من الدعاة على غراره ، لايعرفون سوى سياسة الخنجر والحديد والدم

ويدين سمو آغاخان وأنصاره بوجودهم اليوم إلى الحسن الصباح هذا . وهنا يجب أن نعرّف القارىء علاقة سمو أغاخان وأنصاره بالحسن الصباح و بالفاطميين : نحن نعلم أن نزارا بن المستنصر دعا لنفسه فى مدينة الإسكندرية ، وحارب أخاه المستعلى ووزيره الأفضل شاهنشاه ولكنه انهزم ، وقبض عليه . وقتل فى القاهرة سنة ٤٨٨ هـ ، غير أن الحسن الصباح نادى بأنهم « ما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شبه لهم » ، وحول الدعوة فى بلاد المشرق إلى نزار ، وإلى أبنائه من بعده ، فخلق بعمله هذا ، فى تاريخ الإسماعيلية المشارقة ، دورا جديدا عرف بدور الستر (٤٨٨ — ٥٥٩ هـ) .

وليس من شك فى أن الحسن الصباح كان البطل الأول فى دور الستر هذا ، وكان ينادى بإمامة نزار ثم إمامة أبنائه من بعده ، وينادى فى الوقت نفسه بأنه « حجة » لهؤلاء الأئمة ، ونهج نهجه خليفتاه : الكيابزرجميد (٥١٨ — ٥٣٢ هـ) ، وابنه محمد الأول (٥٣٢ — ٥٥٧ هـ) ، ولم يثر واحد

من هؤلاء الثلاثة على نزار وأبنائه. بل كانوا مثلا عليا فى حبهم والإخلاص لهم ، كما كانوا مثلا عليا فى التقوى والأخلاق الطيبة . واستطاع هؤلاء أن يدعموا دولتهم ، فأكثروا من إقامة القلاع فى جبال فارس وطبرستان وخراسان والشام ، وأنشأوا «دور الدعوة» فى كافة أرجاء العالم الإسلامى الشرقى .

ولما ولى الحسن الثانى (٥٥٧ — ٥٦١ هـ) عرش النزارية ، أحدث بينهم ثورة جديدة ، لم يكن لهم بها عهد ، ولكنهم كانوا يترقبونها ، فادعى أنه هو الإمام المستور من سلالة نزار ، وأتى لاتباعه بسلسلة نسب نراها واضحة فى كتابنا « أئمة النزارية أجداد أغاخان » ، وفيها أثبت ارتباطه بالفاطميين .

ويجمع النزارية إجماعا كليا على أن الحسن الثانى من سلالة نزار ، وبالأحرى من سلالة الرسول ﷺ ، عن طريق فاطمة الزهراء ، زوجة على ابن أبى طالب ، ولكن السنيين لا يوافقونهم على ذلك ، ويرمونهم بأفحش الاتهامات ، ويهمنا هنا أن نقول : إن انتقال الأمر من الدعاة (٤٨٨ — ٥٥٩) إلى الأئمة ، منذ سنة ٥٥٩ هـ ، خلق دورا جديدا فى تاريخ النزارية ، هو دور الظهور ، واستمر رؤساء النزارية يتناوبون الرياسة على أنهم من الأئمة الظاهرين ، منذ ذلك التاريخ حتى سنة ٦٥٥ هـ ، حين قتل هولاكو خان ركن الدين خورشاه (٦٥٣ — ٦٥٥ هـ) آخر إمام من أئمة دولة النزارية .

وكان النزارية فى ذلك الدور يدعون لإمام ظاهر ، ولكن موجة من

الإلحاد قد عمرهم ، فأطاحت بتلك السمعة الطيبة التى خلقها شيوخ الجبل الأوائل ، وبخاصة الحسن الصباح ، وكاد هذا يعجل بسقوط دولتهم ، لولا أن ادعى واحد من هؤلاء الأئمة، هو الحسن الثالث، (٦٠٧ - ٦١٨ هـ) الدخول فى المذاهب السنية ، واعتناق المذهب الشافعى ، وأرسل أمه لتحج إلى مكة المكرمة ، وتبرأ من المذهب النزارى، ومن آبائه وأجداده، فكان ما فعله الحسن الثالث من عوامل الإبقاء على الدولة ، لذلك سموه « المسلم الجديد » .

غير أن دولة النزارية تعرضت لما تعرضت له جميع الدول الإسلامية فى القرن السابع الهجرى ، فطغى عليها جميعها هجوم المغول الخاطف الجارف، فسقطت دولة «خوارزم شاه» ، بعد أن تآمر العباسيون والنزارية أنفسهم عليها ، وتبعتها الدولة النزارية ، فسقطت فى سنة ٦٥٤ هـ ، كما كانت نهاية العباسيين على يد هولاكو هذا فى سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) . ولولا مهارة «المماليك البحرية» وانتصارهم على المغول فى «عين جالوت» (٦٥٨ هـ) لتحول العالم الإسلامى جميعه إلى دويلات تخضع للمغل. وبفضل انتصار المماليك فى «عين جالوت» استطاع الظاهر بيبرس أن ينتزع «قلاع الدعوة» بالشام ، ويضمها إلى ملكه الواسع هناك (١) .

غشى النزارية موجة من التخفى والتستر، بعد مذبحة التتار لهم فى سنة ٦٥٥ هـ . ويظهر أن أئمتهم اتخذوا من بلاد جنوبى فارس مستقرات دائمة

---

(١) انظر ما كتبته فى كتاب « إسماعيلية الشام من أقدم العصور حتى اليوم » خاصا بقلاع الدعوة فى الشام .

لهم ، حتى أننا نراهم فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (الميلاديين) فى كرمان ، كما أنهم تصاهروا مع شاهات فارس . ومن ثم نشأ إمامهم محمد حسين، فى مدينة «محلات» جنوبى فارس، فسُمِّىَ «المحلاتى». وترجع أهمية هذا الرجل فى تاريخ النزارية إلى أمور: منها، أنه من سلالة جمعت بين الإمامة (عن طريق الانتساب إلى نزار) والملك (لأنه حفيد شاه فارس)، لذلك لم يكن بعيدا أن يسعى إلى الملك وزعامة العالم النزارى معا.

ومنها أنه اكتسب رضاء الانجليز فى بلاد الهند ، إذ أنه حين فر من بلاد فارس، اشترك مع الانجليز فى حملتهم فى بلاد السند وأفغانستان، فساعده الانجليز مساعدات فعالة ، تراها فى منحهم إياه لقب صاحب السمو ، ومنحهم إياه معاشا سنويا ضخما أصبح يتمتع به هو وأبناؤه من بعده ، وأهم من هذا كله أن المحاكم الانجليزية بالهند ، حكمت على أتباعه فى سنة ١٨٦٦م، بوجوب دفع الضرائب التى يطلبها منهم، باعتباره الرئيس الروحى عليهم ، فكان تبعا لذلك السيد المطاع بين النزارية ، وأضحى الآغاخانات منذ وطىء سمو محمد حسين أرض الهند فى سنة ١٨٤٣م ، يستقرون فى تلك البلاد ، وأصبحوا من ذلك الحين وهم صنائع الانجليز، ولهم الحق المطلق فى التمتع بأموال أتباعهم .

وقد ولى سمو أغاخان محمدا حسين ، ابنه سمو أغاخان على شاه ، فى سنة ١٨٨١ م ، ولم يتمتع برياسته الروحية والزمنية أكثر من أربعة أعوام ، ومات فى سنة ١٨٨٥ م . وكان مغرما بركوب الخيل ، والفروسية ، وكثرة الرحلات فى جميع أنحاء المعمورة ، وزياراته

الكثيرة لأتباعه فى آسيا وإفريقية مشهورة معروفة . وقد عينه البريطانيون عضوا فى مجلس الحكومة الأعلى فى بمباى . ومات وعمره أربع وخمسون سنة (فى سنة ١٨٨٥ م).

وقد ورث ابنه سمو أغاخان الحالى جميع هذه الصفات ، فولى الأمر، ولم يكن قد جاوز الثامنة من عمره ، وكان الوصى عليه رجل بريطانى . ولد سمو أغاخان الحالى فى سنة ١٨٧٧ م ، وتسمى محمد شاه ، وله شهرته الكبيرة فى النهضة الثقافية بالهند بل فى النهضة الإسلامية فى العالم .

ويلتف حوله كثير من أتباعه ، الذين يتسمون باسم الخوجات ، Khodjas أى الرؤساء الدينيون ، أو باسم الأغاخانية ، نسبة إليه ، وهم فى الحق النزارية الحديثون. وليس من شك فى أنهم لا يمثلون جميع الإسماعيلية اليوم . فهناك أشياع المستعلى ، أخى نزار سابق الذكر ، الذين يحملون اسم « البهرة » ، وهؤلاء لا يقلون عددا عن النزارية . أتباع أغاخان (الخوجات) ، ولذلك يخطىء من يقول : إن أغا خان زعيم الإسماعيلية قاطبة ، وإنما هو زعيم لطائفة منهم فقط . بعد هذا كله نستطيع أن نقول : إن أغاخان وأتباعه اليوم يدينون بوجودهم إلى الحسن الصباح ، أو بعبارة أخرى : إن هؤلاء جميعا من غرس يده .

وبعد فلعلنا نكون قد أعطينا صورة - نرجو أن تكون واضحة - عن تأسيس «الدولة النزارية» و«الدعوة الجديدة» على يد الحسن الصباح زعيم الإسماعيلية فى فارس .